

الفصل التاسع

الأفلاج

١- الطريق:

كان أعلى موقع تتجمع فيه الأمطار يبعد نحواً من ثلاثة أميال جنوب المكان الذي خيمنا فيه للقليلة، وكانت تجري وتحيط به بين الشرق والغرب؛ بين طرفي البياض وطويق حواف صخرية خفيضة لكنها محدودة المعالم، وبذا كان يشكل حاجزاً طبيعياً بين مرتفعات انصلح الوعرة وسهل ظهرة الرجد الصحراوي الممهد، ثم ينحدر إلى أسفل بلطف شديد نحو سهل الأفلاج. وأنا الآن على ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، و ٤٠٠ قدم فوق الرياض التي كنا نقع جنوبها، و ٩٠٠ قدم فوق اليمامة، قياساً على أدنى منخفض في سهل الخرج. وكان ارتقاؤنا من ذلك المنخفض تدريجياً وغير مدركٍ بالحس، ولكنه تدرج مستمر.

ولكن شعيب الخبي كان آخر الأودية المتجهة نحو الشمال وآخر روافد العقيقي من ناحية الجنوب، وكان علينا ابتداءً من الآن الهبوط في طريق يتجه جنوباً، لتقاطع مسارنا المجاري المائية القادمة من طويق متحنيةً في الاتجاه نفسه في طريقها لصحراء البياض. ولاح لنا هذا القفر على يسارنا على البعد باهت الصورة كشطٍ خفيض يتجه نحو الجنوب من المعلم المعروف خشم المشاش، ونظراً لمظهره الخادع - إذ يبدو أكثر ارتفاعاً مما هو عليه في الحقيقة - فإنهم يسمونه الحفاف أو الصخرة. وعند سماعي لهذا الاسم لأول مرة أثار في تساؤلاتٍ عن تلك الأصقاع الرملية الغامضة البديعة التي تظهر في معظم خرائط الجزيرة العربية والتي وصفتها

كثير من الأعمال الجغرافية الخاصة بالإقليم تحت اسم الأحقاف^(١). إن التشابه أو في الحقيقة التطابق بين الاسمين - إذ أن العرب المعاصرين ينطقون الاسمين حقاف - أوحى إليّ للحظة أنني كنت أنظر للتلال الرملية الأولى للربع الخالي، ولكن ما لبث هذا الوهم أن تبدّد بعد أن أوضح لي الرفاق أنهم يطلقون ذلك الاسم فقط على الصخرة الظاهرة أو الحافة الخارجية للسهل الواسع المسمى البياض، وهو قفر أرضه ثابتة ومسطحة وتغطيها الحصباء وتُشبه ظهرة الرجد رغم أنها تفوقها كثيراً في المساحة. لم يكن لرفاقي علم بالأصقاع الرملية التي تحدثت عنها حتى جابر المري الذي كان يعرف الصحراء الرملية العظيمة وأجزاء كثيرة منها مثل الجافورة وخيران، ولكنه لم يسمع قط باسم الأحقاف.

كانت الحرارة مرتفعة أثناء الساعة الأولى بعد التوقف، وسجل مقياس الحرارة في خيمتي ١٠٦ فهرنهايت عند الظهر، ولكن بعد ذلك هبّت ريحٌ شمالية عاصفة لطّفت الجو، وهبطت القراءة في مقياس الحرارة لتبلغ ١٠٠ فهرنهايت عندما واصلنا المسير في الساعة الثالثة عصراً. كانت تخط المرتفعات الحارقة خطوط من الحصباء السوداء هنا وهناك، وكان المكان يعجّ بمجموعات كبيرة من الضب وهو نوع غريب من السحالي المصفحة ثقيل الجسم ولكن سرعته مذهشة. وكانت هذه الحيوانات عند رؤيتها لنا وهي ترقد تحت الشمس، تسرع كالبرق للاحتباء

(١) هناك سورة في الجزء السادس والعشرين من القرآن باسم الأحقاف، وهو إقليم كان يحمل ذلك الاسم في مملكة عاد في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية التي أهلكتها الله بارتكابهم المعاصي بعد أن امتنعوا عن الاستجابة لتحذيرات النبي هود. (انظر الحاشية صفحة ١٤٤). ويوضح سيل (في صفحة ٤٠٦) معنى الاسم كالاتي: «الأحقاف هي جمع حقف وتعني الرمال التي تتراكم بطريقة ملتوية أو لولبية، وهكذا فهو اسم لموقع في إقليم حضرموت حيث عاش قوم عاد». (المؤلف).

بالدهاليز الأرضية التي يعيشون فيها. والضب الحكيم هو الذي لا يغامر بالابتعاد عن جحره أكثر من أقدام قليلة ليسرع إليه عند رؤية أي عدوٍّ محتمل وعند أول إنذار. لكن أحدهم كان أكثر جرأة؟ أو أقل حرصاً من رفاقه فمتعنا بمشهد مطاردةٍ مثيرة كلفته حياته، إذ أن محمداً عندما رآه بعيداً عن أي ساتر في أرض فسيحة قفز عن سرجه لمطاردته بينما حاول الضب الهروب. وبدأ الضب بداية جيدة إذ كانت له مزية معرفة موقع جحره، وكان محمد قد صمم على الإيقاع به. كانت المعركة في بدايتها واستخدم الحيوان الصغير كل الحيل اليائسة مغيراً اتجاهه، ومتخذاً مساراً متعرجاً، ودار حول مطارده ببراعة تدعو للإعجاب. وكانت له مزية أخرى، إذ أن المهاجم الذي يمسك بهذه الحيوانات بطريقة غير حذرة يتعرض لعضات عنيفة تخشاهها العرب كثيراً، ولكنه فقد إحساسه بالاتجاهات، وفي النهاية وبعد فاصل من الصراع سقط ضحية للمناورات الباهرة لمحمد الذي أمسك به مسكةً آمنة من وراء الكتفين، وعاد به منتصراً لنراه قبل أن تريحه السكين من العذاب. كان طول هذا الضب أكثر من قدم ويصنفونه جضاً أي له سستان من العمر، وهو خير أعمارها طعام للإنسان، ورأيت بعض عينات من الضب بلغ طولها قدمين وجسمه يناسب ذلك الطول، وهو في العادة يتبع إلى جحره ثم يستخرج منه، وتعدّه العرب طعاماً مترفاً لا يقل عن الدواجن. ولكن ليس هناك في رأيي ما يبرر هذا التقييم والمكانة إذ أن اللحم الموجود بذنبه الشائك (العكرة) والذي يعدونه أجود مذاقاً من بقية الجسم له طعم «سمكي يكاد أن يكون غير مستساغ».

اكتمل محصول صيدنا بجربوع استُخرج بعد حفر جحره، وطائر طهبوج تم الحصول عليه في ظروف غريبة. وكان أربعة من هذه الطيور يطعمون بالقرب من

طريقنا عندما اقتربنا منهم، ولعلَّ بَطَاهُم وثقلهم لم يسمح لهم ببذل جهد سوى أن جثموا منكمشين في الرمال ظناً بأنهم هكذا يختبئون عن الأنظار عندما مرّت إبلنا بإزائهم. ولكن محمد الآخر كان قد استخرج بندقيته وعبّأها قبل أن ينزلق بهدوء إلى الأرض، ثم استتر من وراء شجرة شوكية صغيرة، وأطلق النار عندما خلا متناً المكان، وعندها قفزت الطيور الأربعة لارتفاع ياردة في الهواء ليحطوا في ذات الموقع وقد أخذ منهم الرعب كل مأخذ، وأطلق محمد ثانيةً ونهضت ثلاثة طيور وداروا حولنا ثم هربوا تاركين الرابع على الأرض وقد أُصيب، ومن المحتمل أن الطلق الناري الأول كان قد أعاق أحدها عن الطيران وأن رفاهه قد قفزوا للهواء وعادوا لموقعهم معه شفقة به، أو أن الأربعة لم يحسوا بالخطر المحقق بهم وقد أصابهم الحرّ القائن بالدوار حتى رأوا أحدهم وقد لاقى حتفه. كانت الضحية قد أصيبت بكسر في الرجل إضافة لجرح عميق في البدن.

ورأينا كثيراً من الغزلان أثناء النهار، ولكن لم تكن بالقرب الذي يسمح بالمطاردة، بينما خيّت آمالنا الصغيرة المتمردة التي بذلنا جهداً كبيراً لتهيئة الظروف المناسبة لترحيلها على إحدى مطايا الحملة، إذ راحت ضحية الحرارة القائظة.

توجَّ نصبٌ كبير من ركام الحجارة هامة الصخرة في الموقع الذي شقَّ فيه طريقنا المكان من مرتفعات انصلح ارتقاءً لمرتفعات رجد التي سرنا في سهلها الفسيح الذي لا تشوبه سوى كتل بازلتية^(١) كبيرة هنا وهناك، وهي ما يسمونها في

(١) من المحتمل أن الروابي السوداء الكثيرة والتلال الموجودة في هذا الصقع وإلى الجنوب منه لم تكن من البازلت، بل حجارة رملية لسوء الطالع لم تصل إلا منذ عهد قريب، والعينات التي جمعتها من الجزيرة العربية ليقوم الاختصاصيون بتحليلها، وللأسف لم يتم التحليل بعد. وكنت في حقيقة الأمر قد تركت العينات مع أمتعتي الثقيلة التي وصلت متأخرة. (المؤلف).

هذا الإقليم الجنوبي هلا . وسرنا في اتجاه الجنوب وقبل أن ننصب خيامنا للمبيت بقليل كنا قد عبرنا طريقاً واضح المعالم يجري من الشرق للغرب بين مراعي البياض من جانب، وآبار قَلْها والورهيّة من جانب آخر، ويبعد الجانب ستة أميال عن الآخر. ثم سرنا حوالي سبعة أميال أثناء فترة ما بعد الظهرية حتى بلغنا أول شعائب رجد وهو رافد لا اسم له يغذى شعيب دية الذي ما بلغناه بعد. وقررنا أن نتوقف، ووجدت هنا في شجرة شوكية كثيفة عشّ صرد أو صلد وبه أربعة أو خمسة أفراخ لم يكتمل نمو أجنحتها بعد، وكانت الأم تحوم محلقة فوق الفروع العليا للشجرة لا تكثر لسلامتها هي بقدر اهتمامها بسلامة أفراخها، وكنت حينها أقوم بفحص العش، ويبدو أنها فعلاً من عائلة الصرد وألوانها بيضاء وسوداء ويعرفونها في شمال نجد باسم صبرى.

عندما واصلنا المسير صباح اليوم التالي عبرنا طريقاً آخر يقود إلى آبار قَلْها قبل أن نبلغ شعيب دية وهو أول الشرايين لنظام رجد الصرفي. يلتقي في أعلى هذا الموقع شعبيّ الدريعيّ وغُلْغُل ثم يعبر الشعيب المزدوج طريقنا في اتجاه الجنوب الشرقي ليقترن بشعيب شَطَاب - الذي عبرنا مهده المعشب والذي تكسوه بكثافة شجيرات المرخ والسلم - بعد ميلين من نقطة الاقتران. بدأت الآن المرتفعات في التموج اللطيف بعد أن كانت منبسطة حتى هذا الموقع. وكان طريقنا يهبط عبر سلسلة من الدرجات السهلة نحو سلاسل من التلال السوداء المختلطة في غير ما اتّساق، وسرنا بطول مهد شعيب الغينة الرملي المليئ بالأشجار. ثم أنخنا هنا بقرب بُريكة صغيرة من مياه الأمطار لتناول الإفطار، وتروّت في البريكة إبلنا قبل أن نواصل سيرنا بجوار هضبة بارزة سوداء اللون وذات شكل مخروطي، وتحمل اسم ضليع العبيد، ثم تخطيناها لنخرج بعدها عن المجرى نحو مرتفعات متموجة

من الحصباء التي كان سطحها مقسماً إلى مربعات من اللون الأسود والبني، وكان اللون الأسود يسود أكثر كلما تقدّم بنا المسير حتى هيمن على المشهد في كل مكان حولنا، وبدا أمامنا وكأنّ حريقاً هائلاً شبّ في عهود قديمة وأحال المكان - لأميال عديدة في كل الاتجاهات حولنا إلى رماد^(١). يمكن أن تكون لهذا الحقل البركاني المتسع صلة بالمكان الذي يُسمّى حرّة السودا^(٢) التي أخبر داوتي أنها تقع في منطقة طويق على مسيرة نصف يوم، ولكن لم يكن لها من الجلال ما كان لكتل الحرات العظيمة الموجودة في الحدود الغربية. وقد تكون هذه هي الطرف الأقصى لامتداد شرقي للمرتفع العظيم الذي تمتد كتلته الرئيسة نحو الجنوب مذكرةً بمردة حرّة نواصف^(٣).

تقدمنا للأمام لنجد شبكة من الشعاب الصغيرة التي تعرف جماعياً باسم أمهات شبيرم تعبر الأراضي السوداء القفر في طريقها لتقترن بشعيب الغينة الذي ابتعد تدريجياً - بأشجاره الخفيفة - عن طريقنا. أفسحت لنا بعد ذلك سلسلة سوداء منخفضة تقع من وراء هذا المنخفض المجال لرؤية حوض عريض في الأسفل، وانحدروا نحوه قاصدين راوية يعلوها نصب من ركام الحجارة يسمّ موقع الآبار في الجانب الأقصى. ونحو هذه النقطة بدا مجرى سيل عريضان هابطين من جوانب طويق عبر الأراضي الوعرة. وأراح الخطآن الأخضران النظر في خضم تلك القفار الموحشة بألوانها السوداء والبنية والرمادية ليقترنا معاً أسفل النصب، ثمّ

(١) راجع وصف الآتية بيل للصفاء شرق جبل الدروز في كتاب (The Desert and the Sawn) ص ١١٥. وما بعدها. (المؤلف).

(٢) راجع كتاب الصحراء العربية (C.M.D. Arabia Deserta) الجزء الثاني ص ٥٤٢. (المؤلف).

(٣) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٦٣، و ص ٢٦٧. (المؤلف).

يمرّ المجرى المتحد نحو شعيب الغينة، ثم يتخطّاه. كان الشعيب الشمالي منهما يسمى وادي العرس والآخر وادي المراء، والاسمان يذكّران إن لم يكونا طرفاً في أسطورة تتحدث عن زواج ريفي تمت فيه الخطبة وحفل الزواج ودخول الرجل بعروسه بالقرب من ثقوب الماء المسماة مشاش العرس في موقع التقاء الواديين. حدث هذا الزواج في مناسبة يبدو أنها كانت التقاء قسمين متحاربين من أقسام الدواسر، حضر أحدهما من الشمال - كما فعلنا - أسفل وادي العرس، وهبط الآخر بطول المراء من مراعي طويق. وهناك منخفض بين المجرين، وكانت هذه السلسلة تحجب الفريقين بعضهما عن البعض حتى التقيا في الفضاء حول الآبار حيث دارت مشاورات سلمية لسبب غير معروف بدلاً عن المشاحنات والاستعداد للقتال، ثم تحوّلت على الفور إلى سلام دائم بزواج ابن أحد الشيوخ بابنة الشيخ الآخر. ترتبط ذكرى عقد القران بمجرى المراء، بينما ترتبط ذكرى وليمة الزواج بمجرى العرس.

أما الآبار فهي حفر غير مبطنة حُفرت في مهد المجرى الرملي لعمق أربعة إلى ستة أقدام في مواقع متعددة تغطي مساحات كبيرة. كانت هذه الآبار قد أفرغت تقريباً من محتواها بفضل تجمع من الرعاة الدواسر وخرافهم، وكانوا يحتلون المكان عند ورودنا إليه، ولكن إبراهيم استطاع - لا أدري إن كان بطريقة لطيفة أو خشنة - إقناعهم بحاجتنا الماسة فتركوا لنا إحدى الآبار واستعار منهم وعاء كانوا يستخدمونه لسقيا الخراف. هذه الأوعية تتكون من قاعدة أملودية بارتفاع قدمين وقطر يبلغ الطول نفسه ويوضع من فوقها جلد يستقبل الماء الذي يسحب من البئر. احتللنا إحدى الآبار للفترة القصيرة التي أنخنا فيها للقليل. وعندما ينضب معين الماء في البئر كان يتجدد سريان فيه بإجراء المزيد من الحفر في القاع الرملي. وكانت المياه بطبيعة الحال غير نظيفة لكنها كانت مقبولة وذات برودة منعشة.

== الجزء الثاني ==

وعندما عاودنا الرحلة بعد الظهر سرنا بطول حافة سلسلة وثيريات بين
الشعبيين اللذين ارتفعا بحدة عند بلوغهما الجانب القصي من الحوض نحو نتوء
حجري، ثم هبط الطريق بعد الوصول لقمة التواء هبوطاً حاداً بلغ مداه مئة قدم
في اتجاه السهل الفسيح الذي كانت تحيط به مرتفعات صحراوية غير محددة المعالم
و ذات حواف منخفضة وتتقطعها رقاع مفرقة ومُعْتَمَة. عند رؤية هذا المشهد حيّاه
الجمع تحية رجل وصل إلى غايته بعد أن هدّه المسير «لا إله إلا الله، انظريا
صاحب! أُسَيْلَة^(١) أماننا». صاح محمد عندما توقفنا هنيهة لننظر إلى مسقط
رأسه، وواصل حديثه «ومن ورائها ناحية اليسار تقع الجفرة، حيث توجد مزارع
وحقول الحبوب وهناك ليلي والعمار وصالح وهذه هي الأفلاج وهذه هي بلدي؛
وهناك حيث سنقيم ليلتنا تسكن زوجي».

(١) وتسمى أيضاً (وسَيْلَة) و(أوسَيْلَة). (المراجعون).

٢- الأفلاج الحديثة:

«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» كانت هذه الكلمات هي العصب لترنيمة قادتنا أثناء مسيرة النهار فوق قفار رجد المحرقة. كان الحداء الذي يترنم به منفرداً محمد الشاب تكررّه المجموعة كما هو دون اختلاف، وليس بترديد لازمة خفيفة خلفه. لم أكن قد سمعت الحداء من قبل، وأدهشني أنها كانت منسجمة مع رتابة المكان من حولنا، ولكن رؤيتنا للحمى أمامنا حول المزاج على الفور بين رفاقي وعمّهم الفرح والحبور، وصاروا يتقافزون في مرح كالأطفال وهم يغنون أغاني مبتذلة عن الحب والحرب والسفر، وتارةً أخرى يهمزون مطاياهم المنهكة في عدوٍ محمومٍ لاصطياد غزال صغير مررنا بقرب مريضه في السهل المعشب.

ووفقاً لتقديري فإن قُطر سهل الأفلاج يقلّ قليلاً عن أربعين ميلاً، ويضمّ الأراضي المنخفضة للإقليم. أما المناطق التابعة لها في مرتفعات طويق فستكون هناك فرصة للحديث عنها بمناسبة مروري بها في رحلة العودة. أمّا السهل فهو حوض دائري فسيح يميل قليلاً من الغرب للشرق، وتحيط به تماماً الحافة الشرقية لهضبة طويق من أحد الجوانب، والصخور المنخفضة للبياض من الجانب الآخر، باستثناء فرجة ضيقة في الجانب الشمالي لمحيط السهل، والتي تحجبها الصخور الجنوبية لهضبة رجد. وتربة الحوض طفلية رملية خفيفة وتغطيها تماماً الأعشاب الصحراوية وفي بعض المواقع تنتشر فيها أشجار قصيرة كثيفة باستثناء الربع الجنوبي الشرقي للدائرة الذي تغطي سطحه حجارة جيرية سهلة التفتت، وهو بعد عارٍ وقاحل ويرتفع قليلاً فوق سطح السهل.

وتمتدّ قطرياً بعرض الحوض من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي أرض عريضة ذات خصوبة تفوق خصوبة بقية الأرض، وكانت تختلف اختلافاً بيناً عن الصحراء التي كانت تحدها من الجانبين رغم أن طبيعتها كانت تتغير هنا وهناك بأمواج رملية منجرفة. كما كانت توجد بها بقايا وآثار حضارة طواها النسيان منذ عهد بعيد، وأيضاً آثار تعطي إشارات معقولة عن صناعات معاصرة. وفي هذا الجزء من السهل يمكننا أن نتبع بمؤشرات واضحة ثلاث مراحل محددة المعالم للتاريخ المحلي: التاريخ القديم، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الحديث. فالتاريخ القديم يمثله آثار قوم عاد في الوسط، وتاريخ العصور الوسطى يمثله فترة عنزة في الجنوب والعصور الحديثة وما تحتله الدواسر الآن ومركز ثقله في الشمال.

وكنا نتجه الآن نحو الطرف الشمالي نحو آخر بقعة في الشمال، أي القطاع الحديث. هبطنا من آخر رفٍّ صخري للرجد في الزاوية التي يكونها الرجد مع المرفق الناتئ من طويق نحو السهل. كانت تقع أمامنا مباشرة على البعد واحةٌ ليلي التي قادنا الطريق نحوها في اتجاه الجنوب عبر هضافة وهو منخفض تغطيه الشجيرات ويجري من جانب طويق في اتجاه الجنوب الشرقي بطول حافة مرتفعات رجد التي تصرف مياهها في ذلك المنخفض من خلال أودية صغيرة يغطيها الحصى وتجري نحو شعيب العرس. سلكنا الطريق الرئيس لمسافة ميل ثم حولنا مسارنا نحو الجنوب الشرقي في اتجاه أسيلة من موقع يسبق قاعدة الأفلاج الأمامية بقليل وهي مزارع قريبة شجرية خربة، والتي تروي القصص المحلية أنه كانت تحيط بها

زراعة منتشرة قبل نصف قرن من الزمان، في عهد فيصل^(١)، رغم أن آبارها المهجورة قد ماتت منذ زمان. وكانت تنتثر الروابي البازلتية هنا وهناك في مجرى هضافة، الذي أخلى السبيل الآن لرقعة ممتدة تربتها طفلية رخوة تغلفها الأملاح وتغطيها أعشاب الرمث ويقطعها مهد رملي لشعيب أم الجرف الذي كان يتلوّى بين جانبين يرتفعان لقدمين نحو حقول الحبوب بأسيلة.

قال لي محمد: «انظر هناك أحد قصور جرفة في اتجاه الشرق، والأرض حولها أرضي أنا وأخوتي الثلاثة وأبناء عمومتي الأربعة، ولقد تمكنا أخيراً في العام الماضي من إعدادها للزراعة بعد جهد وتكلفة مالية عالية، والآن استأجرها منّا الحضر (أي رجال المدينة) في أسيلة لقاء ٥٠٠ صاع من القمح في السنة. وتوجد بالأرض ثلاث آبار سحب عمقها عشر قامات، لذلك كان جهد حفرها عظيماً، وفي كل عام في وقت الحصاد تأتي من المراعي لاستلام حصصنا من الريع. ولقد اتخذت زوجة من الحضر تعيش في أسيلة مع أهل أبيها، ولكنني لا أراها إلاّ لمأماً، ولكن -إن شاء الله- عندما تأذن لي الليلة أو غداً سأقوم بزيارتها. ونحن نقدر أن المسافة بين أسيلة والأحساء تستغرق اثني عشر يوماً عبر البياض، ونحن نسقي الإبل مرة واحدة أثناء الرحلة في أسيلة قبل أن ندلف إلى الدهناء. هناك تلٌ صغير إلى الجنوب من أرضي، أتراه؟ إنه هناك في حافة الصحراء، نحن نسمّيه مريقب، وعلى قمته يجلس الرعاة يراقبون قطعانهم وهي ترعى».

اقتربنا من غايتنا. وكانت القصور مصطفة في خط طويل حسبت منها أربعة عشر، ستة منها خربة واصطفت بجانبني أم الجرف في شريط ضيق من الأرض

(١) الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

المزروعة بالحبوب مع رقاع متفرقة من البرسيم والعصفر وشجيرات رمان متناثرة بامتداد ميلٍ أو نحوه حتى قرية أُسيلة الصغيرة وما يحيط بها من بساتين النخيل . وكانت بساتين النخيل في أُسيلة خمسة بساتين متناهية الصغر . سحبت عنان المطايا وخيّمنا بجوار إحدى القصور الكبيرة على حافة المجرى ، وبدأ الإعداد لوجبة المساء . ولم يأبه أحد من أهل الناحية بقدومنا ولكن أثّرت احتجاجات فظة عندما تقدم إبراهيم ليجمع بعض الحطب لاستخدام المخيم .

وكان رد فعلهم هو حجارة قذفوها نحونا وإساءات وجهوها لزعيم المعارضة الذي نكص على عقبيه لينضم إلى رفاقه دون أن يسبب أي نوع من المشاكل بعدها . وسألت محمداً : «ولكن أين أم الشناظر التي تظهر على خارطتي بالقرب من أُسيلة؟» فأجاب : «لا أدري ، ولكن كل هذه أُسيلة حتى بساتين النخيل هناك ، ولكن الاسم الآخر لم أسمع به على الإطلاق» .

ولكن كان معنا رجل حضري من الخرج يدعى عبدالعزيز وكنا قد التقينا به سائراً بمفرده على قدميه في اليوم الأول لنا في ذلك الإقليم ، وكنا نساعده بإعطائه الفرصة للركوب من وقت لآخر والسماح له بالإقامة معنا في المخيم ومشاركتنا طعامنا .

قال لمحمد «ألا تعلم؟ إننا نخيم الآن في أم الشناظر، إنها ليست سوى اسم البئر التي سحبت منها الماء الآن، إحدى آبار أُسيلة، ولكن الغريب أن دارك هنا ولا تعرف قريرتك بالقدر الذي يعرفه غريب لم ير المكان من قبل، ولكن الإنجليز لا تفوت عليهم فائتة، هم يعرفون كل شيء ويستفسرون عن كل شيء، حتى أسماء النباتات والحشرات؛ كما رأينا» .

معظم المياه في أسيلة مالحه «هَمَاج» كما يسمونها، ولكن المياه العذبة توجد في ثلاث آبار وهي أم الشناظر، بالقرب من مخيمنا، واثنان أخريان بالقرب من القرية الصغيرة في الطرف الجنوبي للهجرة، وعمق الماء فيها في المدى بين ثمانين إلى عشر قامات. بساتين النخيل بالقرية بساتين هزيلة تتداخل مع أجسامات من الأثل وشجيرات متفرقة من الرمان والقرية نفسها ليست سوى مجموعة من البيوت البائسة، عددها حوالي ثلاثين، وكل سكان القرية من الدواسر من فخذ آل حسن، وعددهم بالتقريب ٢٥٠ نسمة بما في ذلك سكان القصور. ويكتمل المشهد بوجود مزارع قليلة منعزلة في الجوار في الجزء الشرقي من السهل وتحيط بالمزارع حقول الحبوب مثل النهة وبداخلها بيتان ريفيان «قصور»، وهي ملك لأمر ليلي، وهناك صباح الخير إلى الجنوب منها، وقصر رَوَّاس في موقع يبعد قليلاً ناحية الشرق.

في الصباح الباكر من يوم ١٤ مايو (أيار) قوَّضنا المخيم متجهين إلى ليلي العاصمة الحديثة للإقليم والتي تبعد حوالي ستة أميال إلى الجنوب الغربي من أسيلة خرجت امرأتان كالعادة لجمع الحشائش لأبقار الآبار على جانب مجرى صغير يسمى ويطن يعبر السهل العاري من الغرب للشرق، وعند رؤيتهما لموكبنا متقدماً عبر السهل وقفنا مذهولتين هنيهة - لا بد أن شائعات قدومي قد سبقني - ثم أنزلتا أحمالهما من حزم العشب على الأرض، واستدارتا وهربتا في دعر أمامنا. ولم تنجح صرخاتنا المطمئنة في إيقافهما، ولم يكن من اللائق أن تصلا إلى المدينة قبلنا لتحكيا ما أصابهما من دعر بسببنا، لذا دفع محمد ذلوله للحاق بهما وما لبث أن عاد بهما، وجثت المرأتان الخائفتان أمامه على ركبتيهما تتوسلان بصرخات تدعو للرثاء طلباً للرحمة. ولكم ارتاحتا وتعجبنا عندما مررنا بإزائهما دون أن نغيرهما التفاتاً. وقال لي طامى عندما نهضتا عائدتين لحزم العشب الملقى

على الأرض: ترى، لم يحدث أن رأنا رجلاً شبيهاً بك من قبل ويحدثهن معلمهن أنكم تأكلون الرجال وتغتصبون النساء حيث ذهبتن إنهم ليسوا سوى جماعة من الجهلاء والبسطاء».

قوبلنا بكثير من الفضول غير المؤذي من الناس عندما بلغنا المبرز وهي قرية فسيحة لكنها مهدامة، تقع في زاوية من الواحة في ركنها الشمالي الغربي حيث استقبلنا إنابةً عن الأمير تابعه، وهو دوسري من حاشيته يدعى محمد، وقادنا بطول الحافة الغربية للنخيل لفناء رملي عارٍ في قبالة البوابة الرئيسة لليلى وهي البوابة الغربية. ويقف حائط ليلى وأبراجها التجميلية الصغيرة إلى الخلف قليلاً من وراء حاجز رقيق من النخيل في صورة ذات سحر غير معتاد، وقابلنا في أرض المخيمات مبعوثان آخران للأمير أحضرا معهما زاداً وفيراً لإقامتنا: وهي خمسة من الأغنام، وطبقين كبيرين من أجود أنواع التمور المحلية، ودلة كبيرة من البن اليمني والذي يسمونه بَرِيَّةَ لأنهم يستوردونه هنا بالبر^(١)، وكثيراً من الخضراوات ولبن الأبقار وبرسيماً للابل. وتركت لإبراهيم أمر إعداد هدايا الرد ليعود بها الخدم إلى أميرهم، وكذلك مهمة إعداد مخيمنا بينما ذهبت أنا ومعني طامي وآخرون من المجموعة دون تأخير لتحية الأمير. قادنا طريق ضيق من مخيمنا عبر مزارع مسورة إلى البوابة الغربية التي كان يدعم حائط المدينة في أحد جوانبها صفٌ من أعمدة تنتصب فوق مهد مجرى السيول. بينما كان في الجانب الآخر نتوء عن خط الحائط، ذلك كان مسكن الأمير العالي المحصن «قصر الشيوخ».

(١) المعروف أن سبب التسمية يعود إلى مكان زراعتها وليس إلى طريق جلبها كما أشار المؤلف. (المراجعون).

بدخولنا للمدينة انحنى بنا الطريق إلى اليمين، وبعد خطوات قليلة وصلنا لبوابة القلعة العظيمة التي تواجه السوق المستطيل الأبعاد. وبعد المدخل مباشرة، وفي صالة ضيقة معتمة حوائطها مزودة على الجانبين بأرائك طينية خفيفة، جلس سعد بن عفيصان، حاكم مقاطعة الأفلاج التي انتقل لإدارتها منذ عهد قريب من وظيفة قليلة الأعباء هي إمارة قريته بالخرج، ويُعرف ابن عفيصان في نجد كلها كرجل قوي لا تلين شكيمته، مع التزام صارم بالتعاليم السلفية، ولقد كان أيضاً - وفقاً لظني - ذا مقدرة عالية من الحكمة والتصرف واللفظ مما جعله يتمتع بمزايا عديدة نتج عنها نجاحه الذي وضح في إدارته لقليلة صعبة المراس، كثيرة المشاكل، كما بدا جلياً في شعبيته. كان الرجل يبدو في منتصف العمر أو أقل من ذلك قليلاً، ومظهره في ملامح الوجه والبنية مثلاً للنجدي؛ نحيل ولكنه ليس طويلاً وبه شيء من وسامة، رقيق عظم الخد وله لحية خفيفة وذقن مستدقة، وصوته حاد بعض الشيء. وبعد أن فرغنا من التحايا الرسمية أجلسني الأمير على المقعد إلى يمينه ودارت أقداح القهوة، وذهب القدح الأول له وأخذه - وهذا أمرٌ صحيح من ناحية المراسم رغم أن عبدالله بن جلوي الذي لم يكن حاكماً لمقاطعة فحسب، بل أحد أعضاء العائلة الملكية كان سيفعل العكس - وقُدِّمَ إليّ القدح الثاني.

أخبرته عن تجربتي في الخرج ومستودعات الماء العظيمة التي اعترف لي بأنه لم يرها، وقال لي: «ولكن انتظر لدينا هنا ينابيع أكثر عظمة من تلك الموجودة في الخرج وستراها غداً. أما وادي الدواسر فلم يجز فيه الماء لثلاثة أجيال خلت، ولكن في العام الماضي في رمضان جعله الله يفيض بالماء في المجرى القديم واخترق حاجزاً رملياً لمسافة تبلغ مسيرة يومين في العرض، وجرى الوادي حتى

كمدة. اسأل متعب هنا وهو أحد شيوخ الوادي الذي وصل هنا الآن في طريقه للرياض». قال هذا ملتفتاً لشيخ القبيلة الذي كان جالساً إلى يسار الأمير بينه وبين أحد أعيان المدينة، أظنه أحد أفراد بيت العجاليين وسألت الشيخ: «إن لم تكن في عجلة عظيمة من أمرك لبلوغ الرياض، أترافقني في رحلتي للوادي ثم نعود معاً لابن سعود؟ وابتسم الأعرابي قائلاً: وش المصلحة؟» ويمكنني ترجمة هذا السؤال كالاتي: «هل تكون المكافأة بقدر العناء؟». وطلبت من إبراهيم لاحقاً أن يتابع مناقشة الاقتراح معه، ولكن يبدو أن متعب فكر كثيراً فيما عُرض عليه ولم أراه بعدها. وعلّقت في حضرة الأمير مشيداً بالحالة الأمنية المستقرة في الإقليم الواقع بين الخرج والأفلاج. وكان رد الأمير: «نعم في السابق لم يكن هناك سوى القليل من الأمن في هذه الأنحاء، ولكن الشكر لله ومن بعد للسياسة الرشيدة لابن سعود أن تغير كل ذلك، وحتى القبائل المتنافرة تُغير على بعضها البعض فقط بعد أخذ الإذن من ابن سعود، وإن لم يفعلوا تعرضوا للعقاب»^(١).

«منذ عهد قريب هاجمت قبيلة معسكراً لقبيلة أخرى وقتلوا اثنين منهم ولكن ابن جلوي زجّ بسبعة من المعتدين في السجن. ولم يمض وقت طويل منذ أن سمحت لجماعة من إحدى القبائل لمهاجمة بيرين حيث سيرجعون قريباً إن شاء الله، إذ مضى أسبوعان منذ أن بدؤوا رحلتهم في الصحراء بعد أن أعدوا لها العدة إذ كانت كل ذلول تحمل قربتي ماء وشوالاً من التمر، وعندما يقتربون من هدفهم يتركون قرب الماء في الصحراء ليغيروا على هدفهم، ثم يقفلوا عائدين لالتقاط

(١) يقصد أمير الأفلاج هنا أن تحرك قبيلة ضد أي قبيلة أخرى لأي سبب من الأسباب لابد أن يكون يعلم الملك عبدالعزيز وإذنه وذلك لضبط الأمور في المنطقة وإشاعة الأمن والاستقرار. (المراجعون).

قربهم من حيث تركوها، إذ ليس في كل تلك الصحراء ماء، وفي هذا الموسم حتى الإبل لا تحمل العطش إلا بصعوبة. لقد كنا في ليلى طوال الوقت مساندين أوفياء لابن سعود ضد العناصر الخارجة على القانون. إن مساهمتنا العسكرية المعتادة هي ٣٠٠ رجل ولكن في حالات الخطر الاستثنائية نرسل رجالاً أكثر، مثلاً قبل اثني عشر عاماً قام ابن رشيد، مدعوماً بكتائب عديدة من الجنود الأتراك^(١)، ومعه بعض المدفعية متقدماً نحو القصيم. في تلك المناسبة ذهب ٨٠٠ رجل من ليلى وحدها للانضمام لقوات ابن سعود ونُظّم هجوم معاكس عظيم في هديّة، حيث اقتلع الله الجنود الأتراك، ثم اقتلعهم ابن سعود، وعاد بقاياهم إلى بغداد ليتركونا في سلام».

بعد مرور المبخرة علينا للمرة الثالثة، رأيت هذه السانحة مناسبة للاستئذان في الانصراف من حضرة الأمير الذي كنا نازلين في ضيافته لعدة أيام قادمة، والذي سأجد لهذا السبب مناسبات كثيرة للقاءه مجدداً. لم يكن قد نهض لملاقاتي عندما دخلت عليه في البداية، لكنه نهض الآن ليعجّل بانصرافي. ولكنه كان بعد ذلك ينهض لملاقاتي ولوداعي. ولقد سمعت لاحقاً من إبراهيم أن الأمير أقرّ أن تلك كانت أول تجربة للقاء مباشر له مع كافر، وهي تجربة برهن فيها على أنه خادم وفيّ لابن سعود، واعترف أيضاً أن التجربة لم تكن بالسوء الذي كان يتوقعه.

ذهبت مع رفاقي للسوق، وهو مستطيل الشكل وليس متسعاً، يحده من أحد الجوانب حائط القلعة، ومن الجهات الثلاث الأخرى صفوف من متاجر ذات طابق

(١) راجع كتاب بلجريف (G.L.B. The Desert and the Sown). ص ٤٦-٤٧. وقعت هذه

الأحداث في شتاء عام ١٩٠٦/١٩٠٧م. (المؤلف).

واحد، ستة عشر متجراً في كلٍّ من الجوانب الطويلة وأحد عشر في الجانب الثالث. كان الفناء الذي يتوسط المتاجر مكتظاً بالمشتريين وبالباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم في سلال مكشوفة أو على الأرض الرملية، حزمة أو حزمتين هنا من أعشاب الصحراء أو البرسيم، وهناك سلة فاكهة أو خضراوات، وكمية جيدة من الملابس المنسوجة في المنازل والمصبوغة بلون أزرق باهت، ويقال إنها مستوردة من الأحساء.

علمت أن ليلى هي المدينة الوحيدة التي تضم سوقاً مهماً في الأفلاج ولكن التعاملات في السوق أظهرت قدراً متوسطاً من النشاط التجاري. ويجري عبر الطرف الأعلى من السوق الطريق العام المهم والوحيد الذي يشق المدينة ويربط بين بوابتها في الأطراف الشمالية والجنوبية. وبعد خروجنا من حضرة الأمير دلفنا عبر البوابة الجنوبية إلى طريق جانبي يقود عبر بساتين نخيل لقرية الجفيدرية الصغيرة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي للواحة. هنا تمهلنا في سيرنا متخذين الطريق الرئيس الضيق المتعرج من البوابة الشمالية حتى البوابة الجنوبية، وهكذا مررنا بالواجهة الغربية للقرية وهي أبعد ما تكون عن الانتظام، وبها أيضاً بوابة -أما الحائط الشرقي فهو يقود مباشرة إلى بساتين النخيل وليست له بوابة- ثم عدنا إلى خيامنا حيث كانت وجبة الصباح قد أُعدت. وبقي معنا من حاشية الأمير الذين لهم ما يربطهم بنا عمل، بينما تجتمع حول المخيم على بعدٍ ما مجموعاتٌ صغيرة من سكان المدينة - أغلبهم من الأطفال والنساء - يحدّقون في الغريب الكافر. كان ما دفع الناس للتحلّق حولنا وفقاً لما أحسسته هو الفضول ببساطة وليس المعارضة والعداء، ولم يحدث قط أن تعرضت لمضايقة أثناء تجوالي حول المدينة والواحة، ولكن قد يكون الفضل في هذا للأمير الذي أعلن على الملأ متوعداً أنه

سيقطع اليد اليمنى لأي شخص يتحدث عني، ولم يكن ليتردد في تنفيذ وعيده إن دعا الحال. وقد أثبتت الحادثة التي وقعت بعد ظهر اليوم الذي وصلنا فيه أن هناك في المدينة من ساءهم وأحنقهم كثيراً السماح لي بالحضور إلى دياره.

جاس الكرى خلال المخيم، وجلستُ أنا أقرأ في خيمتي عندما شعرت بأصوات غاضبة في الخيمة المجاورة. وبعد دقيقة رأيت أحد خدمنا خارجاً منها ومعه آخر من جماعة الحملة وهما يحملان سيوفهم و «المشعب»^(١)، وأسرعاً في اتجاه بساتين النخيل وهما ينويان شراً. وصحت منادياً إبراهيم الذي كان حينها نائماً: «يا إبراهيم! إبراهيم، أين ولماذا يذهب هذان الاثنان؟ ماذا حدث؟ اطلب منهما أن يعودا حتى لا يتسببا في إثارة مشكلة». وعند نداء إبراهيم لهما، عاد الرجلان اللذان كانا قد خرجا دون إذن. وسألهم إبراهيم عن الأمر وأجاب أحدهما «ذهبنا أنا وهذا إلى بئر هناك في أحد البساتين للاغتسال قبل صلاة العصر، وعندما كنا نغتسل أتى صاحب البستان إلينا مع بعض خدمه وطردها وهو يصيح «كُفَّار»، ولم نكن مسلحين لذا عدنا لناخذ أسيفنا لنريهم أنه لن يفلت من العقاب من يسيء لخدم ابن سعود». عندها وبَّختهم أنا على انجرافهم وفرط حماقتهم، وانقضت الأيام الثلاثة التي بقينا فيها هناك دون أن تتكرر مثل هذه الحادثة.

وفي وقت متأخر من فترة ما بعد الظهرية اعتدلت درجة الحرارة قليلاً، وكانت قد بلغت ١١٢ في الساعة الواحدة بعد الظهر، فخرجت في جماعة قليلة من

(١) المشعب: عصا الإبل (*). (المؤلف).

(*) المشعب مصطلح محلي يقصد به العصي الغليظة والتي عادة ما يحتفظ بها المسافرين عبر الصحراء لاستخدامها لأغراض متعددة ومنها الدفاع عن النفس، أما ما يستخدم في حث الإبل والماشية على المسير فيطلق عليه العرق وهو أصغر حجماً من المشعب. (المراجعون).

رفاقي لتفحص الواحة وهجرها. وكانت الواحة تمتد لمسافة ميل بين الشمال والجنوب، وبساتين النخيل فيها مهمة بعض الشيء رغم أنها كانت منتجة لأنواع ممتازة من التمر: أجودها وأعلاها سعراً السري والصفري وكلاهما من التمور كبيرة الحجم، وهناك نوع يُسمّى نبوت سيف تمرته صغيرة ولكنها شديدة الحلاوة، ولكن يشيع الناس أن أكلها يسبب الحرارة رغم أنني تناولت كميات كبيرة منها أثناء إقامتي دون أثر ضار. أما العينات المحلية الأخرى فهي خضري ومقفزي ومسكاني. وهناك أيضاً الكثير من حقول الجوب في وسط الواحة وكذلك في أطرافها، وخاصة في الجانبين الشرقي والجنوبي، وهناك أيضاً التنوع المعتاد: البرسيم، وشجيرات القطن التي تزرع كفواصل، والرمال والتين والأعناب. والمشهد العام للواحة ينبئ عن ازدهار سابق ويوحى باضمحلال حالي، ولتعليل ذلك لا بد من الرجوع للتاريخ العاصف للمقاطعة أثناء النصف الثاني من القرن السابق. وجدت البساتين الواقعة في الجانبين الشمالي والشرقي وقد زحفت عليها الرمال المتحركة، وأخبروني أنّ هذا الأثر حديث نسبياً. وفي أسفل القرية يوجد عدد من هياكل لباني بلا أسقف هي «لقصور» كانت تحرس في زمان مضى هذا الركن من الواحة ضد اعتداءات المستوطنة المجاورة المنافسة: السيح.

كانت المبرّز حتى نهاية عقد السبعينات من القرن الماضي هي المستوطنة الرئيسة لواحة ليلي، ولكنها في السنوات التي تلت وفاة فيصل، أحالها خليفته عبد الله إلى الحالة التي هي عليها الآن نتيحة للدور الذي أدته إنابة عن أخيه المنافس سعود، أثناء الصراع بينهما. وحتى بعد ذلك لم يكف سكانها عن إزعاج منافسيهم في ليلي التي أعاد بناءها -لتصير على ما هي عليه الآن- عبدالله الذي ارتقى بها لتصبح عاصمة للواحة. وقالوا إنّ معركة حامية الوطيس دارت قبل

== قلب الجزيرة العربية ==

سنوات قليلة في الفناء بين المدينتين ونجم عنها مقتل خمسة عشر رجلاً مما أثار حفيظة ابن سعود على المبرز، الذي أعاد السلام إلى المنطقة بنفي المجموعة التي تسببت في الحوادث عن مسقط رأسهم المبرز. وأسوار مدينة المبرز مهدمة للحدّ الذي لا يمكن إعادة ترميمها. وتستخدم بيوتها التي فقدت أسقفها كحظائر لقطعان الخراف والأغنام الكثيرة التي رأيت أطفال القرية يعودون بها مساءً بعد أن خرجوا بها صباحاً للرعي. ولن يكون من السهل تقدير تعداد السكان بالمستوطنة حالياً، ولكنني حسبت حوالي مئة طفل مع القطعان وقد يكون التعداد الكلي ٥٠٠ نسمة.

يلى أو غصيبة كما يسمونها أحياناً لتمييزها عن الواحة التي توجد بها هي المدينة الوحيدة، ولذلك فهي المركز السياسي والتجاري للمقاطعة ولقد ربحت بفضل ما حدث من كوارث لمنافستها، ونمت سريعاً في السنوات الأربعين السابقة بعد أن كانت قرية ليس إلا، لتصبح مدينة مسورة جيدة يسكنها ٤٠٠٠ نسمة، معظمهم من فرع العجاليين التابع لقسم عجلان من قبيلة الحسن كانت القبائل هنا تتنازع من أجل السيادة بدافع من حب النزاع والقتال، ولكن في الأوقات الأخيرة زال التنافس على السيادة المحلية إذ أن ابن سعود الذي استطاع لم شمل رجال القبائل، أيقن أن العنف والكراهية التي تقود للتشاحن من أجل السيادة المحلية تجعل السلام بعيد المنال. لذا سعى لاجتثاث كل أسباب النزاع والشقاق بأن جعل الأقسام المختلفة التي تسكن معاً في ذات المرتبة وجعلهم كلهم تحت إمرة حاكم يعينه هو ويخضع لإشرافه المباشر.

وتحتل مدينة ليلى موقعاً مركزياً في الجانب الغربي للواحة، يتوسطها مجرى السيول: باطن الأحمر الذي يصدر مجراه الرئيس بالقرب من حمر في مرتفعات طويق ويتجه نحو الجزء الجنوبي من الواحة ماراً عبر الخُرْفَة والعَمَار نحو السيح. أما الرافد الذي يجري نحو ليلى فهو يدخل المدينة تحت السور بجوار البوابة الرئيسة، ويخرج منها مجدداً بالقرب من البوابة الشمالية نحو منخفض في ذلك الجانب. تسمو عن يمين البوابة الرئيسة الكتلة البديعة «قصر الشيوخ» أو المسكن الرسمي للأمير الذي تعلوه أبراج الزينة العالية في كل أركانه، بينما تقف في الركن الجنوبي الغربي للمدينة قلعة لا تقل روعة عن قصر الشيوخ هي مسكن معجب بن تركي زعيم العجاليين، بينما يسكن رفيقاه في زعامة الفرع نفسه: حزام ابن خزام، وثلاث بن فلاج، في مساكن في قلب المدينة. لقد تحدثت بما يكفي عن السوق ولكنني لم أرَ الجامع الرئيس. أما الجزء الشمالي الغربي للمدينة، على الجانب الأيسر لمجرى السيول فيحتله الفقراء، بينما تنأى عناصر العبيد المحررين بسكنهم في مجموعة من المباني المنعزلة. كانت القرى الصغيرة: مرير والخرمي تقعان خلف الأسوار في الجانب الشمالي للمدينة في اتجاه المبرز. أما قرى الجُفَيْدِرية ورُمَاحي فهي التي تكمل قائمة الهجر في هذا الموقع. وقرية رُمَاحي الصغيرة ماهي إلا مجموعة مهملة ومهدّمة من البيوت تحيط بالمسجد الأنيق الواقع في قلب الواحة. ويبلغ تعداد السكان في هذه المستوطنات مجتمعة - كما أخبرني الجميع - نحواً من ٦٠٠٠ نسمة.

وتقع إلى الجنوب الشرقي من واحة ليلى على بعد ثلاثة أميال، بساتين نخيل السيح التي وإن كانت حتى الآن أكثر واحات المقاطعة ازدهاراً، إلا أنها تبدو وكأنها جزء من الأفلاج القديمة بحكم وضعها الجغرافي والتاريخي وكذلك لنمط

الزراعة بها. وكانت قرية واحة العَمار الصغيرة تقع على بعد ميلين من مخيمنا في اتجاه الجنوب الغربي التي قمت بزيارتها في اليوم التالي لوصولنا لليلي. وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربي من الموقع نفسه تقع مجموعة قوامها ثلاث واحات متلامسة: الَحْرَفَة والروضة والصغو التي سرنا عبرها عندما واصلنا رحلتنا نحو الجنوب في اليوم الثالث.

وتحيط بواحة العَمار من الجانب الشرقي موجات عالية من الرمال التي يظهر أنها زحفت وخربت جزءاً كبيراً من الأراضي الزراعية التي انحصرت الآن في شريط ضيق من النخيل طوله رُبع ميل ولا يتعدى عرضه نصف ذلك. وفي وسط الواحة تقف قرية صغيرة تحيط بها أسوار عالية مزينة بأبراج ولها من الارتفاع والسماكة ما لا يتناسب والوضع الحالي للمستوطنة. طول واجهة القرية من الشمال للجنوب يبلغ مئة خطوة والواجهة من الشرق للغرب تبلغ مئتي خطوة. ويتوسط المستوطنة طريق يقود من البوابة الجنوبية المهدمة إلى فتحة في الحائط تُستخدم باباً. وفي الجانب الشمالي يقع قصر الأمير وهو مبني من طابقين تحيط به أسوار طينية سميكة ويعلوه برج ضخّم. وأمام القصر يوجد المسجد العام، على الجانب الآخر من المساحة الصغيرة التي تتوسط القرية.

بساتين النخيل هنا ليست كثيفة وغير معتنى بها، وهي تحيط بالقرية الصغيرة، من كل جوانبها باستثناء الجانب الجنوبي حيث توجد بعض حقول الحبوب وتتناثر هنا وهناك بعض المزروعات المساعدة؛ قليل من القطن وقليل من أشجار الخوخ والرمان، وشجيرة أو اثنتين من الليمون ونوع من البرتقال يسمونه «ترنج». ينبئ اسم الواحة عن هوية أهلها الذين ينتمون لآل عمار؛ أو الفرع الرئيس لقسم

آل عمار من قبيلة آل حسن، وكانوا فيما مضى جماعة قوية إلا أن الزمن وسوء الطالع قلل عدد أفرادها في مستوطنتهم الأصلية فصاروا لا يتعدون ٥٠٠ نسمة.

الخرقة هجرة فسيحة ولكنها جد فقيرة، بساكن نخلها متدهورة ولا يعتني أحد بحقول الحبوب ولا بأيكات الأثل والسنت، وتتناثر فيها بعد فواصل يسيرة منازل ريفية مهجورة ومهدمة ومجموعات من البيوت البائسة. ولا يكسر رتبة المشهد الحرب المتهدم بها سوى قرية صغيرة، ذات مساكن طينية مهدمة وفي وسطها قصران جميلان بناؤهما حديث نسبياً. أحد هذين هو مسكن محمد بن شخبوط زعيم عناصر الغيئات الذين يسكنون هذه الهجرة، وهم قسم مستقل من الدواسر، استوطنوا في هذا الموقع منذ عهد قديم. أما القصر الثاني ويسمى قصر الضيكان يخص فيما يبدو أحد أفراد القسم نفسه، وقد يكون المنزل الحضري لمحمد بن عقبان زعيم الجزء البدوي للغيئات الذين توجد مراعيهم في مرتفعات طويق حول مستوطنة الأحمر. إن بالغنا في تقدير عدد سكان الخرقة فيمكن أن نقول إنهم ١٠٠٠ نسمة، كما قالوا لي جميعاً، ولكنني أتجه بتقديري لعدد أقل من ذلك، إلا إذا سلّمنا باكتظاظ السكان في حدود تلك القرية الضيقة التي قدرّت أبعادها بالتقريب كما يلي: ٥٠ × ٧٠ ياردة. يفيض الأحمر كل عام ليغمر الجزء الشمالي من المستوطنة في وقت السيل.

ويعتمد السكان على الآبار التي تختلف أعماقها بين ٥-٨ قامات وفقاً لحالة الموسم، لتسقيهم ومحاصيلهم طوال العام. وقد تعاقبت قصور خربة مع رقاع من أثل في خط يفصل الخرفة عن واحة الروضة المجاورة، في اتجاه الجنوب والتي يسكنها فرع آل مبارك من العمارية، وهم أبناء عمومة سكان عمار. وقد يبلغ

تعداد سكان هذه الهجرة ٥٠٠ نسمة موزعين على ثلاث قرى صغيرة متجاورة: رقيصية في الشمال، والروضة نفسها في الوسط، وهي الأكبر بين الثلاثة، وقرية ثالثة في الجنوب لم أعرف اسمها.

ولم تختلف بساتين النخيل وحقول الحبوب المحيطة بهذه القرى إلا قليلاً عن تلك المحيطة بالخرقة، إلا أنها تقل عنها بؤساً وتصغرها مساحة؛ ولكن القرية الوسطى تميزت عما يحيط بها وبدت كدرة صغيرة من درر المعمار. وكانت أبراج الزينة التي تعلو أركان سور القرية ومئذنة الجامع تكون مجموعة بديعة من القباب المدببة التي تسمو عالياً فوق مستوى البيوت البائسة الموجودة في الأسفل. وكانت واحة الصغو المتناهية الصغر والتي لا تتعدى مساحة قرية صغيرة مسورة تقع جنوب الروضة مباشرة للدرجة التي يُظنُّ معها أنها جزء منها، وبها بعض القصور المتفرقة، وتحيط بها مساحات صغيرة من بساتين النخيل مع رقاع من حقول الحبوب، ويعيش بها عدد لا يتعدى ٣٠٠ نسمة. يقود الطريق بعد هذه الواحة نحو الجنوب عبر قفار رملية بديعة تبدو باهتة على البعد.

والمواقع السكانية في الأفلاج الحديثة هي أسيلة ولى والعمار والخرقة والروضة والصغو، وعمودها الفقري هو مجرى باطن الأحمر. عندما تجوب في هذه البلاد يتلقاتك في كل مكان ما يوحى بالبلى، ويعيش هنا عنصر بشري، يحيا حياة ضنك في وسط حطام بيوت كانت فيما مضى مزدهرة، وتحيط بها حقول وبساتين كانت فيما مضى مثمرة، ولاشك أن السلام قد حلَّ في النهاية بالمكان، ولكن لما تظهر هناك بعد علامات الكدِّ والمثابرة التي يمكنها - وليس غيرها - أن تعيد بناء الحيوية التي أوهنتها الحروب. وقال لي الأمير عندما جلسنا معاً في أمسية

اليوم الثاني من إقامتنا، وكنا على السطح في قصر الشيوخ: «ما رأيك في هذه البلاد؟ ألم تكن غنية في عهود مضت؟ ألن تعود كما كانت مرة ثانية إن أراد الله؟» وكانت إجابتي له: «هناك القابلية لأن تصبح أرضاً غنية، ولكن كما هو الحال في الخرج لا يقوم الناس بمحاولات لاستخدام الوسائل المتاحة لهم. لقد رأيت صحارى في بلاد أعمارها أهلها فاخضرت بالسقيا، ولا أرى أن تترك صحاريكم دون زراعة والماء مبذول لكم وهو تحت سيطرتكم، بينما يمكننا باستخدام الآليات المناسبة والمضخات الضخمة أن نغرق هذه الصحارى من مستودعاتكم المائية العظيمة. يمكنني أن أقنع السلطات البريطانية لتخصيص مضخة كهذه لاستخدامكم». ثم قال لي: «إن كانت هذه هي إرادة الله فستخضر كل هذه الأرض، والله إننا لانسأل إلا الله، ومن بعده ابن سعود».

وشعرت أنني قد أغضبته دون أن أقصد، فسارعت وأكد له أنني ناقشت أموراً كهذه مع ابن سعود، وأنّ الإجراء الطبيعي هو أن الحكومة البريطانية سوف تُمدّه - إن رغب هو في ذلك - بالآلات الزراعية. ثم سألني بإصرار: «ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لا شك أن الذي يحرك صداقتك مع ابن سعود هو الغش، وإلا فلماذا أتيت إليه؟ ولماذا تجوب بلادنا مسافراً في أنحائها؟ يقولون إنك تستفسر عن كل شيء وتسجله في الورق».

أكدت له أنه لا حاجة لنا في قفار نجد العارية، بل إننا نود أن نخلص أنفسنا من أعباء بلاد أخرى أكثر ثراءً وعطاءً، أجبرتنا الضرورة المحضة على الإبقاء عليها تحت سيادتنا ونديرها حتى نتمكن من إعداد ترتيبات بديلة، وأنا سعينا لصداقة ابن سعود والعرب على وجه عام كوسيلة لإقامة الأمن والسلام على حدودنا والمحافظة عليهما.

ثم أجاب: «الله أعلم»، هكذا دون اقتناع بما سقته من حجج وأضاف: «وابن سعود هو خير من يعلم ما يرضي الله وينفع المسلمين، نصره الله على الكافرين». أدهشتني بعض الشيء نظرتة لجماعته، إذ أن ابن سعود كان يتحدث معي عن أبناء الوادي بصفة خاصة على أنهم من أكثر الناس وفاءً وارتباطاً بالقضية. بيد أن تعليل الاختلاف بين وجهتي نظر السيد ووكيله بسيط ويسير إذ أن الأخير يعد أن الغاية هي أن ينذر الناس أنفسهم للعقيدة الجديدة، وهو أمر لم يستوعبه بعد رجال القبائل الذين لم ينالوا حظاً من المعرفة والتدريب.

في الساعة الخامسة صباح يوم ١٧ مايو (أيار)، وبينما كانت مُعدات المخيم تُحْمَل على البعير استعداداً لمواصلة الرحلة، ذهبت يرافقي طامى وقليل من الآخرين للمدينة لوداع الأمير الذي كنت قد بعثت له ببعض الهدايا البسيطة في الليلة الماضية. وكانت قاعة القلعة مهجورة في تلك الساعة الباردة ووجدت سعد ابن عفيصان جالساً في عدد كبير من تابعيه في غرفة كبيرة مظلمة في الطابق الأرضي، وكانت الحملة - التي حدثني عنها - قد عادت لتوها خائبة الرجاء، وكان قائدها سهمي بن سهمي زعيم قسم الهواملة من قبيلة الحزن، وهو رجل طويل رشيق، وكان حينها يتحدث عن تجربته وهو ممدد بطوله على الأرض بجوار الموقد: «الله يسلمك يا الأمير».

ثم واصل حديثه بعد أن حياني الأمير وبعد أن أخبرني عن الموضوع الذي كان قيد الحديث: «سرنا سبعة أيام ليلاً ونهاراً، وبلغنا أعتاب موقع يبرين قبل بزوغ الفجر، فأنخنا المطايا وبعثنا العيون صوبهم بينما كنا نصلي الفجر ونخلد لشيء من الراحة. ولكن عاد عيوننا ليخبرونا أنهم على سلسلة التلال يقومون بالمراقبة. ولم

= الجزء الثاني

يكن هناك مسوِّغ للانتظار، إذ لم يكن عدونا يسمح بالتزال المباشر، إلا أن نأخذهم على حين غرّة. وخشيناً أن يعلموا بوجودنا فيجدوا في أثرنا، لذا ركبنا المطايا ثانية وقفلنا عائدين، وها نحن بين أيديكم حفظكم الله والله إن إبلنا لجائعة عطشى». فقال الأمير: «متعك الله بالقوة يا سهمي» والتفت إليّ قائلاً: «والله يا صاحب هذا السهمي لم يحدث أن عاد قط من حملة من قبل دون أن تكون إبله محملة بالغنائم».

٣- الأفلاج القديمة:

إن الاعتقاد المحلي الجازم هو أن مقاطعة الأفلاج تمتعت في الماضي البعيد نسبياً بدرجة من الثراء والازدهار تفوق بقدر كبير كل ما صار إليه شأنها في العهود اللاحقة. وهذا الاعتقاد تؤيده -بما لا يدع مجالاً للشك- البقايا والآثار الكثيرة الحضارة لم يُعرف لها مثيل في الجزيرة العربية المعاصرة، وهي موزعة على امتداد يقارب عشرين ميلاً من الشمال للجنوب في الجانب الشرقي للجزء الصالح للسكن، فوق وحول المنحدرات الغربية لمسطبة وعرة خفيضة من الحجر الجيري تسمى الغضرا، وتمتد نحو الشرق حتى تبلغ الإطار الذي يحيط بقفار البياض. كان قلب هذه الحضارة بلا شك هو لسلسلة المستودعات المائية العميقة البديعة التي تغذيها الينابيع، والتي بقيت إلى يومنا هذا تنادي آذاناً صمّاء لاستغلال المصادر الزراعية في المنطقة التي تركت لعاديات الزمن حتى عمّها الخراب.

كانت المستودعات المائية في قمة الهضبة، إلى الشمال قليلاً من النقطة المركزية للصقع، بينما يبدو أنه كان هناك مركزان أو أكثر للسكان في تلك الأيام السعيدة، أحدهما في اتجاه الطرف الشمالي للصقع بالقرب من واحة السيح الحالية، والثاني في اتجاه الجنوب بجوار رقاع نخيل غوطة البائسة. يقع كل الصقع إلى الجنوب من مجرى باطن الأحمر الذي يمر طرفه الشرقي عبر بساتين السيح، كما أنّ الصقع يقع إلى الشرق من خط يمرّ إلى الجنوب من ليلى ويتجه إلى شرق البديع. ولعل الصقع المذكور لم يكن قط ذا عرض كبير رغم أننا قد نفترض أن واحة منطقة البديع - والتي سميتها أنا الأفلاج الحديثة- لم تكن قد تركت دون زراعة عندما كانت بقية المقاطعة في قمة ازدهارها.

ويسم حزام من الكثبان الرملية الحدود الغربية للأفلاج القديمة، وقد يسم أيضاً الحدود الغربية للأرض التي كانت مزروعة في السابق من مياه المستودعات. كان هذا الحزام الرملي عميقاً وعريضاً في جزئه الشمالي، ثم تضائل حجمه في اتجاه الجنوب حتى صار شريطاً ضيقاً من الرمال السطحية بالقرب من البديع.

لم يكن الوقت متاح لي في الرحلتين اللتين قمت بهما من أجل فحص هذه المنطقة الرائعة يسمح لي بالتقصي والمسح الدقيق للإقليم أو للارتفاعات التي كانت تتحكم في تصميم نظام الريّ المعقد الشاسع الذي رأيت آثاره في كل جانب. ولكن مجرى السيول الذي يعبر سهل الأفلاج، وموقع المستودعات المائية نفسها، وتنظيم الريّ، كل هذا جعلني أتصور نظام الري.

كان السهل ينحدر بانتظام من الغرب للشرق، إلا أن انحداره كانت تقاطعه هضبة الغضرا المرتفعة التي تبرز نحو الغرب من حدود البياض باندفاع نصف دائري، وينحدر السهل بتدرج إلى أسفل في الاتجاه نفسه مع منحدرات جانبية تقع في الشمال والجنوب وتقترب بالتدريج وهي تتراجع نحو الشرق متناغمة مع الانحدار العام للسهل. ثم إن المستودعات المائية توجد على رفّ جوار قمة المنحدر وتتفرع منها قنوات الريّ منتشرة في انحدار نحو الخارج في اتجاهات الشمال والغرب والجنوب. ورغم أنّ تصوّري لنظام الري في ذلك الزمان مبنيّ على ما رأيت آثاره على الأرض، إلا أنني لا أستطيع أن أجزم أنه كان في حقيقة الأمر كذلك، ولكن الشواهد تعضّد تصوّري هذا، وهو أولاً يتكون من سلسلة من القنوات التي تمتد من المستودعات الشمالية وتسيل نحو الشمال لتسقي نخيل السبخ، وثانياً هناك قناة مخفية لم أتمكن من التعرف على رأسها رغم أنّ الجزء الظاهر منها في النقطة التي رأيتها فيها كانت تجري نحو الجنوب في اتجاه غوطة،

بينما كانت هناك مجموعة ثالثة من القنوات - التي لا تُستخدم الآن - تجري في اتجاه غربي أو شمالي غربي من جوار المستودعات المائية نحو خرائب قرية قديمة تسمى مخاضة في مهد باطن الأحمر.

والعيون أو مستودعات الأفلاج المائية هي تكرر - بيد أنها أكبر - لعيون الخرج التي وصفتها سابقاً. وكما هو الحال مع سابقتها يُقال إنها بلا قاع وتغذيها ينابيع خفية توقف بعضها عن العطاء، ومثلها أيضاً تدخل الإنسان لينحت المخارج منها ويعدّ متاهة من القنوات المخفية من نوع الكاريز، والتي كانت تحمل مياهها فيما مضى من زمان - وما زالت - نحو حقول الحبوب المحيطة بها ونحو بساتين النخيل. والمياه الداكنة الصافية - كما تبدو داخل الحفر نفسها - تجري في أنهار ضحلة متفرقة وبنفس الشفافية التي تتصف بها مياه الخرج ولكن نقاط الاختلاف بين المجموعتين صارخة كما هي نقاط التشابه. يوجد هنا من الحفر ما لا يقل عن سبع أو ثمان إن جاز لنا أن نحسب الحفر التي لا يوجد بها ماء الآن، والتي امتلأت بالتراب. كانت حفر الخرج الثلاثة ذات أحجام متقاربة، وكانت مساحة السطح في المتوسط ٦٠٠٠-٧٠٠٠ ياردة مربعة، ولكن تلك الموجودة في الأفلاج كانت متباينة، تبدأ من حفر جدّ صغيرة طولها عشر ياردات وعرضها ثلاث على السطح، وتندرج المساحة حتى تصل لمساحة بركة عادية طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها ربع ميل، في أعرض أجزائها.

كانت مستويات الماء في هذه الحفر أقرب للحافة مقارنة بمستودعات الخرج باستثناء عين أم خيسة، بينما كانت الحوائط الداخلية الشاهقة لعين الضلع وعين سمحة مشابهة لاثنتين فقط من عيون الأفلاج. وأخيراً بينما كان ترتيب الحفر في الخرج عشوائياً دون أن تبدو بين الثلاثة صلة، كانت تلك الموجودة في الأفلاج

مقاربة جداً ومرتبة بعد فواصل بطول محيط قوس طويل وكأنها سلسلة متصلة، إن لم تكن دلالة على أنّ كلّ المجموعة كانت حوضاً واحداً يوماً ما - كما يمكن أن يكون هذا حالها الآن تحت السطح- ومن ثمّ انفصلت لتكوّن وحدات مختلفة. إنّ الطمر الكامل لما يبدو أنه كان إحدى هذه الحفر - وأبعادها ليست قليلة- والحجم المتناهي الصغر لأخرى قد يعني أن عمليات فصل قد جرت في الماضي أو أنها ما زالت جارية. ولكن لا ينبغي لي أن أتعديّ على مجالات تقع خارج مدى البصر، ويكفي أن نسجّل الحقائق كما هي.

كان القوس الذي تصطف فيه الحفر يقع بالتقريب بين الشمال والجنوب. بينما كانت أطراف القوس تشير نحو الغرب على رفّ فوق الهضبة، وتقف خلفه صخرة شاهقة غير منتظمة الأبعاد، أطول وأكثر أقسامها ارتفاعاً تجاور الطرف الجنوبي للرفّ وكانت تحيط بالبحيرة التي ذكرتها من قبل وهي آخر المستودعات المائية من الجانب الجنوبي وتستمد اسمها: أم الجبل من حقيقة أن الصخرة تنحدر بحدة لعمق عشرين أو خمسة وعشرين قدماً نحو الطرف الأعلى للساحل ذي المنحدر اللطيف الذي تغطيه الحصباء، وهو الذي يجري للحافة الشرقية للبحيرة.

هذه البحيرة هي بلا منازع أكثر المعالم الطبيعية روعة بالأفلاج، بل بالتأكيد في كل الجزء الداخلي من الجزيرة العربية حيث لا توجد أسطح مائية أخرى ذات صفة دائمة بهذه الأبعاد. حدث في أزمان سابقة أن زار الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة العرب زوار أورييون، وأوردوا -بناءً على معلومات سماعية محلية- تقارير عن وجود بحيرة عظيمة في مكان ما في الأجزاء الداخلية للجزيرة العربية، وأطلقوا عليها اسم بحر سلوم، وبناءً على ذلك قام راسمو الخرائط بوضع بحيرة هائلة المساحة على خرائطهم مع تعليل وجودها بأنها نتجت عن تدفق مياه

== قلب الجزيرة العربية ==

وادي الدواسر في حوضها الفسيح . وكان تطبيق معايير علمية أكثر حزمًا، إضافةً لسكوت بعض المكتشفين البارزين عن ذكر هذا الأمر، أمثال بيرتون وداوتي وبوركهارت وآخرون ممن كانت لهم المقدرة على استنباط وتمحيص المعلومات المحلية، أدى سكوتهم عن الأمر لرفع هذا المعلم عن الخرائط ذات السمعة الحسنة، استناداً على أنه معلم وهمي . بيد أن راسمي الخرائط القديمة كانوا في حقيقة الأمر أقرب للحقيقة من خلفائهم .

زعم بلجريف أنه زار الأفلاج أثناء تجواله، وكان يمكنه أن يجنب راسمي الخرائط خطأً وخطأ الأجيال التي تبعتها، إذ مرّ بالجانب الآخر وترك لي شرف إعادة بحيرة الجغرافيين القدامى لخارطة الجزيرة العربية مجدداً، رغم أنها في حقيقة الأمر ذات أبعاد متوسطة إذا ما قورنت بتلك التي رسموها في السابق، كما تختلف عنها في نواحٍ أخرى . إن ما يدعو للدهشة أن وجود مثل هذه البحيرات ومجموعة المستودعات المائية في الخرج والأفلاج بقيت كلّ هذا الوقت مستعصية على اكتشاف الرحالة والمكتشفين الكثيرين الذين لا يعرف الكلال إليهم سبيلاً، والذين تمكنوا من على البعد، وبناءً على معلومات الأهالي المحليين وحدها أن يضعوا على الخارطة مجموعة واحات الأفلاج ووادي الدواسر - إن لم نذكر الأخريات - قريباً جداً من مواقعها الحقيقية .

ولا بد لي أن أعترف أنني كنت أجهل وجود هذه المستودعات المائية حتى وجدت نفسي على حافة حفر الخرج . ولكن لا يصعب - في اعتقادي - معرفة الأسباب التي أدّت لهذا الوضع الشاذ: في المقام الأول: فإنّ العرب يسمّون حفر المستودعات هذه العيون أي ينباع ولا يبذلون جهداً للتمييز بينها وبين ينباع

العادية الأخرى التي توجد في الأصقاع المختلفة، وثانياً: المدهش حقاً هو قلة العرب الذين تجشموا مؤونة الحضور لزيارة هذه المعالم من خارج المنطقة التي تغذيها هذه المصادر المائية. وهذا ينطبق أكثر على حفر الأفلاج، إذ أن عيون الخرج معروفة بدرجة أكبر.

وتتخذ بحيرة أم الجبل - إلى حد ما - شكل الحدأة، مع ذنب مستدق وأجنحة ملحوظة تمتد على الجانبين في الجزء الجنوبي. إنها تقع في قاع منخفض ضحل فسيح، وتغطي المساحة التي تحفّ بجوانب الماء أعشاب وفيرة ونباتات البردى والقصب التي رأيت في وسطها أبقاراً قزمية ترعى. ولاحظت أيضاً في طرف البحيرة الشمالي - ولكن فوق مستوى الماء بمسافة - انخفاضاً لمجرى ينحو في اتجاه الشرق ولعله كان قناة أو مجرى مائياً في الأيام التي كان مستوى الماء فيها يصل إلى مستويات أعلى. وإن كان الأمر كذلك فلا بدّ أنها هُجرت عندما انحسر الماء عنها نتيجة لفشل الينبوع الذي يغذيها إذ أن البحيرة توصف الآن بالموت أو السكون، ولذلك لا فائدة منها لأغراض الرّي إلا إذا استُخدمت وسائل آلية لتغذية القنوات التي تنحدر منها.

وتوجد في الطرف الشمالي أرض عالية تطلُّ على مشهد شامل للمنطقة المحيطة، ورأيت من هناك بعيداً إلى جهة الشرق حافة البياض المهجورة والتي يُقال أن أقرب أطرافها في هذا الاتجاه يبعد مسيرة يومين عن هذا الموقع، أي حوالي ٥٠ ميلاً، وتحتلُّ المساحة بيننا وبينها قفارُ الغضرا ذات الحجارة الجيرية والتي قد تحتوي - أعماقها التي لم يكتشفها أحد - على بحيرات وحفر شبيهة بتلك الموجودة على حافتها الغربية، رغم أن هذا احتمال بعيد. وتقع مجموعة واحات الخرفة نحو الغرب، والبديع إلى الجنوب منها، وتبدو على البعد سلسلة تلال باهتة من

مرتفعات طويق؛ وإلى الشمال تقع ليلى والسيح، وإلى الجنوب مروان والواحات المجاورة.

وتجاور البحيرة من الناحية الشمالية أصغر اثنتين من حفر الأفلاج وهما قريبتان لبعضهما في وسط فناء معشب، وتُسمَّيان معاً أم الحباب وكل منهما ميتة، إذ أن الينابيع التي كانت تغذيها قد توقفتا عن العمل، ولقد بحثت دون جدوى عن مؤشرات قد توحى بأنهما استُخدمتا من قبل لأغراض الري. إحدى هاتين هي الحفرة المتناهية الصغر التي أشرت لها من قبل، بينما الثانية بيضوية الشكل، طولها حوالي ٦٠ ياردة وعرضها في أوسع المواقع يبلغ ٤٠ ياردة.

يأتي تالياً في الترتيب مستودع دائري يسمَّى أم العظمان وقطره حوالي ١٠٠ ياردة، ومن طرفه الشمالي تجرى قناة مخفية لتؤدي دوراً حيوياً فيما تبقى من نظام الري القديم. وترتفع حوائط المستودع المائي لمسافة ستة أقدام تقريباً فوق مستوى سطح الماء بكل الجوانب، كما أن الطرف الأعلى من القناة المخفية والتي تتخللها - بعد فواصل - فتحات الري الدائرية العمودية، والتي كانت تحت مستوى سطح الماء بمسافة كبيرة، وقالوا لي إنها تبلغ أربع قامات. ولا بد أن الينبوع الذي يعتمد عليه المستودع مفعم بالحيوية حتى يستطيع أن يحافظ على مستوى الماء بهذا الارتفاع فوق المخرج الذي يصرف المياه، ولكن الإهمال الطويل للخرز [قناة الري] قد أسهم بلا شك في تقليل سرعة سريان الماء فيه، وبالتالي في الحفاظ على مستوى عالٍ من الماء في المستودع.

يقع إلى الشمال من هذا المستودع المائي، وفي مكان ما بالقرب من النقطة المركزية لمحيط القوس تجويفٌ معشب كبير، ولكنه الآن جاف تماماً رغم أن اسمه أم الضيابة، كما توجد قناة ري مفتوحة مهملة تتجه شرقاً من طرفها الجنوبي ولا

تختلف عن تلك التي وصفتها عندما تحدثت عن البحيرة العظيمة، وهذا يدلُّ على أنها كانت في زمان مضى مستودعاً كمثيلاتها. تؤيِّد الروايات المحلية هذه الرأي، إذ يقولون إنّ القناة المهجورة حفر فيها آل مرة ليزودوا مخيمهم بالماء استعداداً للرحلة التي تستغرق أربعة أيام عبر الصحراء الرملية العظيمة في الأيام التي كان خلافهم فيها مستعراً في المنطقة، وحين كانت ترجمة هذا الخلاف لأعمال عدوانية ممكناً أكثر مما هو الآن تحت المراقبة اللصيقة لابن سعود. إنّ كانت هذه الرواية تستند على حقائق ثابتة فهذا يعني أن المستودع كان مستخدماً في عهود قريبة نسبياً. والرواية قد تكون مختلفة، ولكن وجود القناة نفسها يشكلُ برهاناً كافياً لصحة النظرية القائلة بأن المنخفض لا بد أن يكون قد احتوى على الماء في الماضي.

كنت بلا شك سأنال ثمرة تجشم العناء إنّ تتبعنا القناة في الصحراء حتى نهايتها البعيدة، إذ كان من المحتمل أن أكتشف مستوطنات مهجورة من الماضي. ولكن لضيق الوقت استبعدت هذه الفكرة، هذا؛ إنّ لم أذكر عدم رغبة رفاقي لتحمل المشاق التي كانت ستنجم من تنفيذها. لقد كان اليوم الذي قمنا فيه بهذه الرحلة للمستودعات المائية أحد أكثر الأيام التي قضيناها في الأفلاج حرارة. كنا في منتصف شهر مايو (أيار) في خط عرض ٢٢ شمال، وكانت أشعة الشمس تهوي بحمها عمودية على رؤوسنا. ورغم كل محاولات رفاقي لاختصار التجوال بين المخلفات البالية لمملكة كانت عظيمة فيما مضى، تمكنتُ من إبقائهم في العراء حتى بقيت ساعة واحدة لبلوغ منتصف النهار، فهم جوعى وعطشى إذ كنا قد غادرنا مخيمنا بعد الفجر بقليل. كان لدينا مرشدان تكرم الأمير بتخصيصهما لهذا الغرض، أحدهما - اسمه محمد كان داكن البشرة وهو دوسري فظ، والآخر

-سعد- وهو قحطاني مرح قصير القامة. وعندما رأى هذا الأخير عزمي على البقاء هناك لأطول فترة أستطيعها انصرف بكليته للعمل، وكان يوجه انتباهي بالغمز أو الإشارة كلما لاحظ أن رفيقه قد استلقى. ولم يحاول بقية رفاقي، وهم إبراهيم ورشيد ومترك وثلاثة أو أربعة آخرون إخفاء ما أصابهم من ملل، أو نسيان حاجتهم لتناول الإفطار. وبعد أن رأينا الينابيع الثلاثة الأولى، أي تلك الموجودة في الطرف الشمالي للقوس قال لي محمد: «لقد رأيت الآن الينابيع، دعنا نذهب». لقد كان يبدو جائعاً للحد الذي لا يسمح له بالإدلاء بالحقيقة، وفعلاً وبعد قليل من التحقيق والتهرب من الإجابة، قال لي: «إن هناك المزيد من الينابيع، ولكنها جد بعيدة». وبغمزة من سعد علمت أنه كان يكذب مجدداً بخصوص مواقعها. وقلت: «انظر، إن الأمير قد أخبرني أن هناك ينابيع عديدة، ولقد رأيت ثلاثة منها فقط؛ ووالله لن أفطر حتى أراها جميعاً، فإن كنت تعرف مكانها خذني إليها، وإلا فإنني سأبحث عنها حتى أجدها». كان هذا كافياً لمحمد. لقد كانت بقية الحفر والبحيرة في الجوار.

أخبرني الأمير والآخرين أن الأفلاج ووادي الدواسر يتمتعان في حقيقة الأمر بصيف أكثر اعتدالاً مقارنة بالشمال وقالوا: «كل ما تجنب تبرّد»، ومهما كان السبب وراء هذه الظاهرة الغريبة فلا بدّ أن أقرّ أنّ تجربتي خلال هذه الرحلة قد أثبتت صحّة هذا الرأي. وحقيقة أخرى علّلوا بها انخفاض درجات الحرارة هذا العام بصورة غير معهودة، وهي أن أمطار الشتاء كانت غزيرة بصورة استثنائية. لقد جرى السيل في باطن الأحمر سبع مرات خلال الموسم الذي انقضى قبل وقت قليل، وقد برّد السطح الذي تمرّ فوقه الرياح في هذه الأيام ويصحب ذلك هبوط

== الجزء الثاني ==

في درجات الحرارة. كانت الرياح الجنوبية أقلّ فعالية في هذا المضمار من النسمات الشمالية التي كانت على الدوام منعشة وجدّ باردة في بعض الأحيان.

وكانت المستودعات الثلاثة المتبقية تقع خلف تجويف أم الضيابة إلى ناحية الشمال في صقع معشب يبلغ طوله نصف ميل. وكان أبعدا في اتجاه الجنوب وهي أصغرها، وتتخذ شكل بركة دائرية تقريباً يبلغ طولها حوالي خمسين قدماً، ويقل عرضها عن ذلك قليلاً، ويحيط بها حائط منخفض لكنه حاد، ويرتفع لقدمين فوق مستوى الماء بكل الجوانب باستثناء الجنوب حيث يوجد جانب من تلّ صخري شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه حوالي اثني عشر قدماً تهوي بحدة لحافة الماء. يعرف هذا المستودع باسم أم الجرف في إشارة للمنحدر الحاد الذي تحدثنا عنه. ولم ألاحظ وجود فتحات خارجية تسمح بانسياب الماء إلى خارجها، وأحسب أنّها تُعدّ من الحفر الميتة.

يُعرف كلٌّ من المستودعين الآخرين باسم البحرة، وهما مسطحان مائيان حيّان متوسطا المساحة مع ميل إلى الكبير. يكون المستنقع -الذي يقع إلى الجنوب- شكلاً نصف دائري وغير منتظم بطول ٥٠٠ ياردة وعرض ٦٠ ياردة، بينما يقل الثاني عن الأول أبعاداً، حوالي ٣٠٠ × ٥٠ ياردة وهو يبيضوي في شكله تقريباً. ويقف الحاجز في كل منهما مرتفعاً لقدم واحد فقط فوق سطح الماء ويزهو بحلّة عظيمة من القصب والأعشاب الخضراء، ولكلّ فتحة في جانبها الشمالي يسيل عبرها الماء نحو قنوات الري ترى فتحاتها الدائرية بارزة فوق الرمال المتحركة التي تتأ من الصقع الرملي الذي لاحظنا وجوده على بعد أقدم قليلة من حدود هذه المستودعات. ويقارب عمق الفتحات الدائرية العمودية نحواً من أربعين قدماً في الطرف الجنوبي للمجرى الذي تتراكم فوقه الرمال لتكون شطاً عالياً، بيد أنّ

ارتفاعه يقل تدريجياً كلما تتبعناه بعرض الشط الرملي، وبعد ميل تقريباً تختفي الفتحات العمودية، ويصبح المجرى مكشوفاً حتى يبلغ السيح. ويسمون هذا المجرى عين سمحان، وبعد الفرع الرئيس لنظام الري الذي ما زال فاعلاً. تلك القنوات التي تبدأ من البحرة الجنوبية وأم العظمان تمرّ تحت الحاجز الرملي لتقترن بسمحان في نقاط عديدة بطول مجراه. وأما المجاري المكشوفة التي تتكوّن بعد عبور الرمال - وهي فيما يبدو أربعة - تطلق عليها أسماء تحاكي وتذكّر بأسماء قنوات الأحساء الجارية: مجسور، وجّاج، برابر، ومنجور، بهذا الترتيب من الجنوب للشمال. وبعد نقطة التقاء منجور - وهو الأخير - مع سمحان يقترب المجرى من مجرى باطن الأحمر، وبعد ذلك يجري موازياً له حتى يصل كلاهما للمساحات المزروعة في السيح.

وواحة السيح هي المستوطنة الوحيدة التي تبقت على قيد الحياة من المستوطنات التي كانت تعتمد على نظام الري المتجه شمالاً، وهي المستوطنة الكبيرة الوحيدة الباقية من كل مستوطنات الأفلاج القديمة، وهي في الوقت نفسه أكبر الواحات وأكثرها ازدهاراً في كل الإقليم، وتدين ببقائها الذي لا بد أنه كان متصلاً عبر الأزمان - كما تدين بوضعها المهيمن كمركز زراعي - للظروف التي جعلتها لحسن طالعها لا تعتمد في الماضي أو في الحاضر على عامل وحيد من العوامل التي تتحكم في الثروة في الإقليم منذ البداية. وكان موقعها المميز - الذي جعل مجرى السيول في باطن الأحمر، ومجرى سمحان المستديم يحيطان بها من الجانبين - قد أمكنها من الاستغناء عن أحدهما إن اقتضت الظروف دون تأثير كبير، وفقاً لما كانت عليه أحكام المناخ في السنين المتعاقبة، كما كان يمكنها الاعتماد على الري الصناعي من المستودعات المائية لتتجاوز بها فترات الجفاف وإن طالت ولتغلب بها

على ما قد ينجم عن تراجع معدلات الأمطار في الأراضي المرتفعة في منابع السيول. كما كان يمكنها الاعتماد على السيول لتسقي بساتينها إن احتلّ عدوّ المستودعات وحطّم مجاري الأدوية أو غيرّ مسارها. وكان حسن الطالع هو الذي عصمها من تطابق كلّ الظروف السيئة التي تمنع عنها كل مصادر الماء والتي كان يمكن أن يضرّ بها ضرراً بليغاً.

بعثنا برسالة في المساء من ليلى لزعيم عائلة الأشراف نخطره فيها برغبتنا في تناول الإفطار معه. وكان محمد دليلنا اللفظ يؤيد بحماسة أن نتوجه مباشرة للقرية عبر الطرف الجنوبي القصي للواحة بعد أن فرغنا من زيارتنا لمنطقة المستودعات المائية ولكن خططه المبنية على الخداع ملأتني بالعناد والرغبة لمعارضة أي اقتراح يصدر عنه. لذلك تركنا مجرى سمحان لتتبع المهد الرملي العريض لباطن الأحمر متوجهين نحو الطرف الشمالي لبساتين النخيل. وينقسم مجرى السيول إلى فرعين قبل أن يبلغ الواحة بقليل، ويجري أحد الفرعين إلى اليمين إلى داخل حيش كثيف من النخيل، بينما يواصل الفرع الآخر مساره في الاتجاه الشمالي الشرقي يحفّ بالطرف الشمالي للواحة جارياً بينها وبين بستان نخيل مسورٍ يسمى الطويرقي ويتوسطه قصر ضخم جيد البناء. كنا قد تتبعنا هذا الفرع حتى وجدنا أنفسنا على الجانب الأقصى من الواحة، وسرنا بطول حافتها نحو الجنوب لقرية الأشراف الصغيرة، وهكذا اتخذنا طريقاً كاد -بعد أن بلغنا غايتنا- أن يصير دائرة كاملة حول المستوطنة، ولكن في طريق عودتنا لليلى سرنا عبر قلب الواحة التي حملت معي عنها انطباعاً عاماً بدا جيداً.

تقع واحة السيح على بعد حوالي أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من ليلى، وثلاثة أميال شمال منطقة المستودعات المائية، وتكوّن شريطاً من بساتين نخيل

كثيفة، ويمتد لميل ونصف من الشمال للجنوب، بعرضٍ لعله يبلغ نصف ميل في المتوسط. تسقي سيول باطن الأحمر الجزء الشمالي من الواحة ويُتحكم في مياهها -في موقع انقسام المجرى إلى فرعين- باستخدام سدٍّ غير منتظم من التراب والأغصان المقطوعة ويحول حسب مقتضيات الضرورة لتحويل انسياب الماء بين الفرعين. كان الفرع الذي اتبعناه يُستخدم عادة لتصريف المياه الزائدة في أوقات السيل العظيم، بينما كان الفرع الآخر والروافد الكثيرة التي تخرج منه إلى داخل الواحة تُستخدم لأغراض الرِّي. وكانت السيول الاستثنائية هذا العام قد فاجأت الزُّراع أثناء نومهم ومرت بكميات جد كبيرة وبعنف كاسح إلى داخل بساتين النخيل، فتركت آثارها في المستوطنة بتكسير الحوايط الفاصلة بين البساتين وانتزاع السياجات والبوابات وما إليها. ويسقي وادي سمحان الجزء الجنوبي من الواحة وهو حزام متصل من نخيل عظيمة يوليها أهلها كل عناية.

يقسم طريق مركزي يسمى سوق الحيش الواحة طولياً إلى نصفين تقريباً، ويبدو أنه الحدّ الفاصل بين المجموعتين اللتين تقتسمان حقوق الملكية في المستوطنة بنسب متقاربة: عنصر الدواسر الذين يقطنون إلى شرق الطريق، والأشراف والملاك العبيد إلى غربه. ويبلغ عدد أسر الأشراف حوالي ثلاثين ويكثرون في معية مواليتهم والمزارعين في قرية السيج أو السيج الأقصى، كما يسمونها دائماً في الطرف الجنوبي للواحة، بينما يسكن الملاك وهم في الغالب من قسم القصيم، قرى الزبيدي والفويضليّة في الركن الشمالي الغربي للواحة، وفي أكواخ متناثرة بين البساتين. والملاك من الدواسر هم في الغالب بدو غائبون عن القرية، من مجموعات آل عمار وقيم وقينان، ويزرعون بواسطة مزارعين عبيد، رغم أن عائلات قليلة من آل حامد الذين كانوا قد انضموا لتنظيم الإخوان قد استوطنوا

بصفة دائمة في قرية متناهية الصغر تُسمى قصور خلف، بين السيح والقطين التي تسمى أيضاً السيح الأدنى، وهي قرية تقع في زاوية من حزام بساتين النخيل الواقعة في الجهة الشرقية للواحة. أمّا القطين فهي رئاسة آل عمار وجماعات أخرى من الملاك البدو الذين يشكلون أيضاً سكان قرى أتمرة ورفاع وقصر المناعي في الحافة الشرقية للرقعة المزروعة، ويشاركهم المكان زُرّاعهم من العبيد. ويشكل العبيد الأحرار غالبية سكان الواحة، ولعلّ عددهم الكلي يبلغ ٣٠٠٠ نسمة. لقد سكنوا في هذا الموقع لأجيال كثيرة متعاقبة، إذا جاز لنا أن نحكم من مظهرهم العام فلا بد أنهم قد تهاجنوا مع جيرانهم العرب بدرجة كبيرة رغم أن التزاوج بين العرب والعبيد أو بين العرب والخلّاسيين سواء كانوا رجالاً أم نساء قليل الحدوث، ويُنظر إليه بازدراء. وقد يبلغ عدد الأفراد المكونين لأسر الأشرف ٢٠٠ إلى ٣٠٠ نسمة، ويعتمد ٢٠٠٠ آخرون منهم على الواحة لإمدادهم بالتمر والحبوب التي يأتون في الموسم للمطالبة بنصيبهم منها. هكذا يبلغ التعداد الكلي للواحة حوالي ٦٠٠٠ نسمة يسكن منهم ٤٠٠٠ فقط بصفة دائمة.

إن عماد القرية هو بلا ريب محصول التمر، واشتهر تمرها بالامتياز. ويفوق عدد العينات المزروعة هنا عددها في أي مكان آخر بالإقليم، رغم أنّ أهم هذه العينات هي تلك التي أشرنا إليها من تمر ليلي^(١) إضافة للتمر، فإن هناك الكثير من الحبوب والبرسيم والعصفر والخضراوات المختلفة، كما يُزرع القطن في أماكن متفرقة رغم أن الملابس المنسوجة محلياً لا يلبسها سوى أكثر الناس فقراً، كما تنمو شجيرات العنب والرمّان وأشجار الفاكهة الأخرى جيداً تحت ظلال النخيل. وقد تزايد في الآونة الأخيرة الاتجاه لحفر الآبار لأغراض الريّ لدعم مصادر الماء

(١) راجع المتن، ص ١١٤. (المؤلف).

المذكورة سابقاً ونتيجة لهذا تزداد مع الأيام الرقعة المزروعة، ويعود الفضل في هذا لعدد من الباحثين عن الاستثمار من تجار ليلى الذين عندما شعروا بالأمان في السلم الذي أتى به حكم ابن سعود للبلاد، أصبحوا يبتاعون الأرض كلما وافق سكان السيح على بيع جزء منها. ويبلغ عمق الماء في آبار هذه المنطقة حوالي ثلاث قامات.

كانت قرية القُطَيْن فيما مضى مسورة كما كانت أكبر مما هي عليه الآن، إذ أنّها دفعت الثمن لدورها في إيواء المتمردين في الحركة المجهضة في عام ١٩١٢م، وبعدها لم يُعدّ بناء السور الخارجي مجدداً. وعدد البيوت بالقرية حوالي ١٥٠ بيتاً تنقسم إلى كتلتين لا تتخذان أشكالاً محددة وتقعان على جانبي أحد فروع باطن الأحمر. فضلت مجموعة كبيرة من سكان القطين السابقين البحث عن أرض جديدة يقيمون عليها دورهم بدلاً عن إعادة بناء ما تهدّم، وكانت النتيجة أننا نرى قرى صغيرة حديثة هي قرى أتمرة ورفاع المتجاورتين والواقعتين خارج الحافة الشرقية للنخيل مباشرة، للدرجة التي يحسبها المراقب مستوطنة السيح نفسها، والتي بقينا بها عدداً من الساعات قبل أن نعود لمخيمنا بعد زيارتنا للمستودعات المائية.

ترجلنا أمام القرية الصغيرة غير المسورة التي تبرز إلى خارج النخيل من حافة السهل العاري في شرق الواحة، وسرنا بطول طريق ترابي لمسكن محمد بن فهد أمير الواحة وشيخ الأشراف المحليين. كان مبنى فخماً إذا ما قورن بالبيوت الطينية التي تحيط به، ولكنه كان مثلها من الطين المجفف ومن خلال الطرف الأبعد من فناء صغير محاط بسقيفات أو إسطبلات، دلفنا عبر باب كبير لصالة تتخذ شكل

الحرف الإنجليزي (T) وتستخدم كقاعة للقهوة، وهي كل ما رأيته من المنزل بالداخل. وتحتوي القرية الصغيرة إضافة لمسكن الأمير على مسجدین صغيرین وقليل من المتاجر الصغيرة التي تكون السوق، و ٢٠٠ دار سكنية.

وكان مضيفنا محمد شيخاً بحق. يبلغ من العمر ثمانين عاماً ولكنه كان مرحاً ودوداً متوسط الطول، ذا هيكل نحيل قوي ومظهر يوحى بالرزانة. لقد كان بلا شك يبدو أصغر سناً من ابن أخيه الطويل المقوس الظهر، الشديد الهزال وهو فهد ابن عواض بن فهد الذي كان يساعده فيما تقتضيه واجبات الضيافة. وادّعى الأخير أنه لما يبلغ الأربعين من العمر بعد، رغم أنه يبدو حقيقةً أقرب إلى القبر من عمه المسنّ القوي، إذ أنّ الاثنان ارتحلا إلى الرياض بعد مغادرتنا للأفلاج مباشرة عندما كنّا في طريقنا للجنوب فأصابته وعكة بعد بلوغه العاصمة وتوفّي بها قبل أن نعود نحن إليها.

لم ألاق طوال إقامتي بالجزيرة العربية ترحيباً وكرماً ومبالغة في الاستضافة بقدر ما لقيته مجموعتنا في هذه الدار الودودة المرحبة. كان إبراهيم قد تغنى لي بكرم وصفات ذلك الشيخ دون أن يبخل عليه بمحاسن الأوصاف، ولكنّ تقيظه لم يكن ليوفي الرجل حقه. لقد كان كرم محمد مضرب الأمثال في الشرق كله حتى بالمقارنة بعهد حاتم الطائي نفسه. وهنا في قلب الجنوب وقف رجل لا يهاب شيئاً، غير ملتزم بالتعاليم السائدة، يعلن ويمارس عقيدة أسلافه التي لم تكن عقيدة جيرانه. رجل مستقيم في كل تعامله الذي كان يستفتي فيه ضميره وليس ما يراه الناس، مفرط الكرم إزاء الفقراء والمحتاجين، وافر الشهامة كما أثبتت أفعاله أثناء تمرّد عام ١٩١٢م. لقد اعترف بعدها بجرمه بأنّ فرّاً عندما ظهر ابن سعود. وفي يوم تنفيذ أحكام الإعدام في ليلى ظهرَ بطريقة مفاجئة أمام الملك

وأمام الملأ واضعاً جبلاً للشنق في عنقه ولم يطلب شيئاً سوى العقاب على ما قام به. ولكن دماء الشهامة تجري بقاء لا مثيل له في سرايين بني عنزة^(١) إذا ما قورنوا ببقية العرب، وما زال ابن فهد يحكي كيف أنه هُزم هزيمة كبيرة في ذات المجال الذي يجيده؛ مجال الشهامة إذ تفوق عليه العاهل الملك بأن عفا عنه. وليس لدى ابن سعود الآن من هو أكثر ولاء منه ولا مستشاراً أحقّ بثقته. وعندما عدت راجعاً إلى الرياض تمتعت بلقائه مرةً أخرى في ديوان الملك، وتمتعت بالاستماع لمناقبه تُمثّل أمام الملأ بواسطة ابن سعود. كان الذي يدهشني على الدوام كأحد أهم مزايا الحكم السعودي هو ضمُّه لكثيرين ممن أدوا أدواراً قيادية في معارضة سيادته وحكمه، ولكنهم عادوا لخدمته نتيجة للصفعات الموجهة التي تلقوها منه في ميدان المعركة ولشهامته حيالهم في ساعة نصره. لقد كان هذا درساً آخر استمدّه من إخفاقات أسلافه.

كان مظهر محمد الخارجي يخفي قلباً في صفاء الذهب. ومَرَّت الساعات القليلة التي قضيتها في قاعته المضيافة كهنية خاطفة في واحة باردة تحيط بها بيدات العلاقات الإنسانية العربية القفر قبل اثني عشر جيلاً أتى أسلافه - فرع من أشرف اليمن - من ديارهم في جوار نجران استجابة لقوة الدفع التي دفعت بفائض السكان منذ عهود قديمة من جنوب غرب الجزيرة العربية في انسياب مستمر نحو الشمال الشرقي عبر شبه الجزيرة الصحراوية^(٢). يقول المثل «اليمن رحم (أو مهد) العرب

(١) يبيّن المؤلف هنا كلامه على أن الملك عبدالعزيز من عنزة والصحيح أن آل سعود من بني حنيفة. (المراجعون).

(٢) أما الروايات التي يتناقلها الأشراف في نجد فتقول إنهم من الحجاز وقدموا منه في أزمنة متباعدة، أرجعها البعض إلى القرن الثالث الهجري في المدة التي حكم فيها الأخيضريون منطقة نجد. (المراجعون).

== الجزء الثاني ==

والعراق المقبرة»^(١) أتوا إلى الأفلاج بحثاً عن ديار جديدة، ووجدوا نظام الري القديم في حالة خربة رغم أنه كان قابلاً للإصلاح، فاستقروا بين بساتين السيح التي أصبحت ملكهم؛ جزء منها انتزاعاً وجزء آخر بالشراء من الملاك الدواسر الذين أتوا في الوقت نفسه معهم أو سابقين لهم. وتمتلك العائلة في الوقت الحالي حوالي نصف الواحة بعد أن فقدوا أجزاء من ميراثهم بالبيع للمضاربين المستثمرين من أهل ليلى. كانت إجابة مضيفي «نحتاج ونبيع»، بطريقته الصريحة المميزة ردّاً على تعبيرى بالدهشة لتفريطه في البساتين الغنية التي كانت في حيازته. وحكى لي أنه عندما كان شاباً - قبل سنوات عديدة- زار الرياض مصاحباً لوالده، وهناك رأى الإمام عبد الرحمن الذي كان حينها رضيعاً يحمله موالى القصر، ولا بد أن مولده هو نفسه كان في حوالي عام ١٨٤٠م عندما احتلّ ابن ثنيان عرش نجد، وليس كما أعلن هو نفسه - في عهد الإمام تركي الذي سبق ذلك التاريخ بعشر سنوات أو أكثر^(٢).

عندما جلسنا متكئين على الحوائط في القاعة بالقرب من الموقد، أداروا علينا أقذاح القهوة والبخور على فترات متقاربة، وكانت القهوة من البن اليمني الحقيقي، إذ لا يحتمل أحد أي نوع آخر من البن في جنوب الحرج. وكان رجال القرية يأتون من حين لآخر لارتشاف قدح من القهوة ولسماع الأخبار. لم تكن الحرب تهمهم إلا قليلاً إذ كانوا راضين عن عزلتهم طالما استمرت حركة القوافل مناسبة، وهي التي تجلب البن إلى داخل البلاد من اليمن البعيدة، وتعود إليهم

(١) «اليمن رحم والعراق قبر العرب» في بعض الأحيان تستبدل بكلمة «رحم» كلمة «مهد». (المؤلف).

(٢) كلام المؤلف هنا غير دقيق لأن الإمام عبدالرحمن ولد في عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) وعبدالله بن ثنيان تولى حكم الرياض خلال الفترة ١٢٥٧-١٢٥٩هـ (١٨٤١-١٨٤٣م). (المراجعون).

بالأقمشة والسكر من موانئ الأحساء. وأثارت البوصلة وآلة التصوير اللتان أحملهما فضول الجميع ولكنهم لم يتمكنوا من استيعاب الغرض من آلة التصوير التي افترض محمد أنها نوع من المقرّب (التلسكوب)، ولقد أفاض عليّ من الشكر والعرفان عندما وعدته بإعطائه منظر ميدان هدّية له، وهو وعد أنجزته فور عودتي للمخيم. وكان الأثاث الوحيد الموجود بالقاعة هو حصائر خشنة مصنوعة من سعف النخيل مدت على الأرض بزيادة سجاد وسرج جمل وُضِعَا على شرفي. وجلس محمد وابن أخيه قباليّتي بالقرب من الموقد يضطلعان بمسؤولية عمل القهوة ويتناوبان الاختفاء من القاعة إذ كانوا يُعدُّون إفطارنا. ولكنهم أحضروا في البداية طبقاً ضخماً من التمر وقصعة من اللبن المخثر البارد المنعش، وهو ما شربنا منه كثيراً. ثم جاؤوا بالوليمة يسبقها بساط دائري جد كبير، وبعد أن فرشوه في وسط القاعة ظهر الموالي يحملون إناءً دائرياً مسطحاً قطره حوالي ثلاثة أقدام وبه مقدار من ثريد قمحي يتصاعد بخاره، طُبِّخ في اللبن، وقطع من الخبز المخضل في اللبن، وفوق هذا أضافوا «السمن» بسخاء من قصعة خشبية، وفي النهاية أحضروا إناء اللحم؛ أطراف شاة كاملة كوّموها فوق الثريد القمحي أو «الجريش» كما يسمونه، وهو شبيه بالبرغل الذي يؤكل في سوريا أو «لقيمى» نجد.

قال مضيفنا: «سَمَّ» وبعدها انسحب هو وابن أخيه مكثفياً بالراحة النفسية التي تجلبها عليه رؤيته لنا ونحن نهوي على طعامه الجيّد بشهية عظيمة أثارها طعامه نفسه. هويّنا نحو القصعة الضخمة بعزم أكيد إذ كان الجوع قد أخذ منا مأخذه، وعندما نهضنا عن مائدة الطعام لم نخلف وراءنا سوى العظام. وقلنا للمولى الذي أحضر لنا طَسْتاً لنغسل فيه أيدينا: «أنعم الله عليكم»، وبعدها عاد محمد ثانيةً

واحتلّ موقعه بجوار الموقد مستنكراً كلمات الشكر التي أسبغناها عليه، شارعاً في إعداد القهوة بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث. وعندما علم من إبراهيم أنني أدخّن أصرّ على ألا أقيم بيننا الحواجز فاستجبت بإشعال غليونني. كان هذا الموقف - رغم أنه يبدو صغيراً - نقطة أضفتها لمزايه، بيد أنني لم أدخّن على رؤوس الأشهاد ثانيةً في كل الفترة التي قضيتها بالبلاد السعودية إلا لمرة واحدة، وكان ذلك في القصيم. وقال مضيفنا: «والآن عليكم أن تراحوا»، وخرج ليعود ثانية بوسائد وبعض الأبسطه، ثم ذهب تاركاً إيانا لساعة نمنا خلالها، وتم إيقاظ رفاقي لصلاة الظهر ثم أخذنا الإذن للانصراف من مضيفنا الذي يندر أن يكون هناك صنوٌ له في أي مكان، وبعدها عدنا لخيامنا في ليلي.

رأيت في الجنوب قريباً من السيح، وعلى بعد ميل واحد شرق مجرى سمحان بقايا مهدمة لما كان يوماً سوراً محيطاً به قلاع بالية. كان السور منتصباً في بعض المواقع، وكانت تغطي السهل بين هذه الخرائب الطينية وبين الوادي روابٍ من الحجارة والملاط تشبه النصب التذكارية. وكانت هذه الروابي تشبه تلك التي رأيتها في سلسلة تلال قصيعة في أعلى المستودع المائي: عين الضلع بالخرج. وكانت هناك مجموعة ثانية من خرائب مشابهة منتشرة حول مسطحات الحجارة الجيرية في منطقة الحُفر. قد يكون هذا المكان موقعاً لقرية عظيمة درست أو مقبرة من الماضي، ولعلها من أصل فارسي، إن جاز لنا أن نحكم من طبيعة نظام القنوات الموجودة بجوارها والذي يعطي مؤشراً لهوية أولئك الذين اخترعوه. ولكن الثابت أنه ليس هناك أثر مشابهٍ لها - سواء كانت مدينة أو مقبرة - في مصادر تاريخ العرب الذين أهملوا هذه الروابي التي انتشرت فوق مساحة شاسعة

وركزوا اهتمامهم على الحوائط الطينية والقلاع التي كانت جليّة واضحة رغم أنها كانت تحتل مساحة ضيقة، وقد تكون من عهود حديثة نسبياً، ولعلمهم بفعلهم هذا حافظوا دون وعي منهم على بقايا من عهد قديم مما قد لا ينسب لأسلافهم، وقد لا تمتّ بصلة لبقايا النصب التذكارية، ولكن لعهود أسبق لتاريخ الأفلاج، حيث أنهم يسمّون الخرائب قصيرات عاد، وتحكى عنهم القصة التالية:

حكم هذه الأنحاء في عهود بعيدة ملك عظيم يسمى عاد بن شداد الذي اتخذ وُبَارَ عاصمةً له، وهي على مسيرة شهر في الرمال الجنوبية بجوار حدود حضرموت. وغرّت عاداً قوّته ومدى ازدهار مملكته ففسى الله. ورغم التحذيرات التي ساقها إليه نبي الله هود فقد شرع في بناء عاصمته كجنة في الأرض. وفي وسط الحدائق التي أقامها لمتعته أحاط نفسه بحراسة عظيمة قوامها ألفان من المحاربين المختارين، واحتفظ في إسطبلاته بألفين من الجياد المطهّمة نادرة المثال، وكان بين يديه حشد من العذارى قوامه ألفان من الفتيات. ولكن هناك حدود لإمهال الله للعاصين من عباده، فأنزل عليهم سخطه وغضب الله عليه ودمّره بالريح الغربية العقيم، التي هبّت عليه ثمانية أيّام دون توقف، ودفنت عاداً وكلّ عظمته في بحر من الرمال التي تعرف حتى الآن بالربع الخالي نسبةً لخلوّها من الحياة. وكان مصير عاد من المواضيع الأثيرة المتكررة في القرآن لتحذير عبدة الأصنام بمكة من مغبة التيه والضلال^(١).

تركت دراسة الجزء الجنوبي من الأفلاج القديمة، وهو ليس أخذاً كسابقه - وإن لم يقل عنه إثارة - لأقوم به في رحلتنا من ليلى للبديع في المرحلة القادمة من

(١) راجع القرآن الكريم، الجزء السابع. (المؤلف).

رحلتنا للجنوب. لهذا وبعد أن فرغنا من زيارة مجموعة قرى الخرفة الواقعة في الطريق المباشر المتجه للجنوب، انعطفنا في سيرنا نحو الجنوب الشرقي من الصغو في صباح يوم ١٧ مايو (أيار).

كان علينا أن نعبر شريطاً رملياً ضيقاً وهو امتداد للنفود الثقيلة المتجهة شمالاً، وبعدها وجدنا أنفسنا ثانيةً في هضبة الغضرا المكونة من الحجر الجيري والتي كانت تنحدر بلطف نحو الغرب وتقاطعها بطريقة متشابكة بقايا القنوات التي تتفرع فيما يبدو -استناداً على اتجاهاتها- من قناة رئيسة تستمد مياهها من بحيرة أم الجبل. كانت هذه القنوات في أغلب الأحوال قد حفرت على سطح المنحدر، ولكن واحدة منها أو اثنتين كانتا مبنيتين بالكامل على مستوى أكثر ارتفاعاً من الأخريات، ويبدو أنهما كانتا قناتين كبيرتين. بينما كانت الأخريات روافد لهما. كان الحجر الجيري على السطح يفسح المجال أحياناً لرقاع من تربة رملية متماسكة ورقاع مالحة تغطيها بكثافة شجيرات الحمض التي وجدنا في إحداها عُشّاً لَحْمَرَةً^(١) به ثلاث بيضات. وكانت توجد هنا وهناك هضاب صغيرة دائرية، تكوينها خليط مجعد من الحجر الجيري والجبس، بينما تجري سلسلة منخفضة من روابٍ سوداء يُصنّفونها «هلا» أي صخور بركانية سوداء. في حين أنها قد تكون من الحجر الجيري. وتمتد هذه السلسلة بطول قمة المنحدر مخفية وراءها صقعاً من مرتفعات سوداء متموجة، ويبدو سطح هذا الصقع مغطى برمال ناعمة تغطيها بكثافة حصباء صغيرة سوداء وقطع صخرية أكبر لها اللون نفسه.

(١) طائر في حجم العصفور، لم أستطع تحديد هويته. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

وجدنا في إحدى تجاويف هذه المرتفعات حقلاً متوسط الكبر من الخرائب به بقايا شبيهة بالنصب، وكان بالقرب منها رقعة بئسة من الحيش أو النخيل البرية. وبعد ذلك مباشرة وجدنا أنفسنا في وسط ساحة دائرية ممتدة من ركام الحجارة بلغ قطرها - كما قدرته من قمة رابية مسودة في ركنها الجنوبي - ميلين أو نحو ذلك.

بعد ذلك دلفنا مباشرة إلى منخفض عريض، كان في مهده خط من النخيل المبعثرة دوغما اتساق يسقيها جدول جارٍ. ولا بد أن هذا الموقع كان مركزاً سكانياً في الأزمان الغابرة، ولكنني بحثت دون جدوى في المنخفض نفسه عن مؤشرات لسكن بشري قديم أو حديث، ولم يكن هناك شيء سوى بيتين صغيرين خالين، يبدو أنه يستخدمهما في زمن الحصاد أولئك الذين يزورون المكان لخراص التمر.

وتابعنا الجدول مرتقين المنحدر إلى منبعه حتى بلغنا النقطة التي بدأ فيها، خارجاً من مجراه المخفي ليمر في مجرى ضيق لا يتعدى عمقه قدماً واحداً يسمى الجدول عين سويدان، ولا يعلم من أين ينبع، ويسمى بستان النخيل غوطة أو غوطة سويدان.

باستثناء هذه المعلومات اليسيرة لم أستطع أن أحصل على أي إشارات عن تاريخ هذا الموقع، أو عن هوية من سكنوه فيما مضى من زمان. وما تبقى من نخيلها يمتلكه أهل الرزيفية، وهي قرية متناهية الصغر قوامها ستة بيوت مبعثرة في رقعة النخيل الهزيلة، ومساحتها قليل من الأفدنة، وتبعد ميلين نحو الجنوب بعرض سهل عارٍ من الحجارة الجيرية، ولا تعدو المستوطنة أن تكون حزام نخيل طوله ميل واحد وعرضه في المتوسط ٢٠٠ ياردة في مهد مجرى الثوير المائي الذي يهبط من مرتفعات المنطقة.

أما القرية نفسها فهي مجموعة بائسة من البيوت الطينية التي تبلغ نحواً من أربعين بيتاً، وتقع في الجانب الجنوبي لحزام النخيل تحت صخرة شاهقة أثرت فيها كثيراً عوامل التعرية، وتكوّنت من نتوء في الغضرا يتجه نحو الغرب.

وكان سطح الغضرا مغطىً بخرائب حجرية كما هو سطح المنطقة كلها. وكان مهد المجرى المائي يعاني من تأثير الأملاح، والنخيل تسقى من آبار يقال إن مياهها مالحة. كما كانت البساتين في الطرف الغربي أكثر كثافة من تلك الموجودة أسفل المجرى المائي.

سرنا الآن في اتجاه الجنوب الغربي عبر هضبة وعرة متموجة، من الحجر الجيري، نحو بته، وهي آخر المستوطنات وأبعدّها من ناحية الجنوب في إطار المستوطنات القديمة الواقعة في منخفض المجرى المائي المسمّى خر، وهو الشعب المقابل للتويز من الجانب الجنوبي للمنبع.

ولكن في منتصف الطريق بين مروان وبته بلغنا رقعة ثانية كبيرة في مساحتها وتملؤها الخرائب الحجرية التي كانت موزعة حول منخفض شبيه بفوهة بركان قُطره حوالي خمسين ياردة مع حافة مرتفعة فوق سطح الهضبة وتبدو كأنها رابية صغيرة غارت قمتها.

ومن الجائز أنها بقايا حصن أو مبنى آخر ولكن وجود قنوات مهجورة في نقاط مختلفة في الجوار توحى بأنها كانت في الأزمان الغابرة مستودعاً مائياً لينبوع مثل الحفر الشمالية. ومهما يكن الأمر فلا بد أنها كانت أيضاً موقعاً لنشاط إنساني في الماضي، إذ أن المؤشرات للأعمال اليدوية التي خلفها الإنسان كانت جليّة في

كل النواحي. وكان هناك منخفض ذو طبيعة مشابهة على بعد نصف ميل مع قنوات تتجه نحو مجموعة من قصور مهجورة تبعد حوالي ميل واحد من نخيل بنة.

تتكون مستوطنة بنة من قصر وحيد وحزام نخيل يبلغ طوله ربع ميل، وعرضه خمسين ياردة، ويُسقى من جدول مائي جارٍ يسمى خريزان، ولا يعرف المزارعون مصدره رغم أنّ قنواته مكشوفة في بعض أجزاءها ومغطاة في أجزاء أخرى، وبها فتحات الري العمودية الدائرية التي يمكن تعقبها لمسافة ميلين إلى ناحية الغرب من النخيل. في الوقت الذي قمت فيه بزيارة المستوطنة كان هناك عدد قليل من العبيد يقومون بالعمل في الفتحة العمودية الأخيرة والتي كان يبلغ عمقها ثلاث قامات تقريباً لمحاولة زيادة انسياب المياه الذي كان ضعيفاً للغاية. وكانوا يقومون بنظافة المجرى ولكنهم فيما يبدو كانوا يعملون على غير ما هدىّ إذ أنهم اعترفوا أنهم لم يكونوا يعرفون الاتجاه الذي يأتي منه الماء.

وكان من الواضح أنّ ينبوع الذي يُغذّي المجرى المائي يفقد حيويته بالتدريج. وكأثماً كانت نخيل بنة على وشك أن تأخذ نصيبها من المصير الكالِح الذي حاق بكثير من مستوطنات الأفلاج القديمة.

كان أمير البديع قد أخبرني أنّ العمال الذين كانوا يحفرون في المكان لتطهير قناة خريزان وجدوا حجراً غريباً عليه كتابة منقوشة. لذا عندما ذهبت إلى بنة كان يحدوني أمل عظيم في أن أكتشف بعض الوثائق التي قد تعطي مؤشرات عن تاريخ حضارة الأفلاج القديمة، لكن خاب رجائي، إذ أن العبيد الذين استجوبتهم بدقة عن الأمر لم يتمكنوا من إبراز شيء ذي أهمية سوى قطع بلورية غليظة

== الجزء الثاني ==

وشرائح من الحجر الجيري متحبة كالبللور. إن الزمن والبحث والتقصي الدقيق هما الكفيلان بحلّ المعضلة التي يمثلها انتشار الخرائب والبقايا البالية في هذه المنطقة - إن قُدِّرَ لأحد مزودٍ بكل ما يستلزمه هذا التقصي أن يزور هذه الأنحاء - ولكن حتى ذلك اليوم سيبقى تاريخها مغلفاً بالغموض. كل ما نعلمه يقيناً هو أن الإنسان قد عاش هنا حياة مزدهرة في وقت ما، ثم زال الرخاء ولم يعد ثانية ولا ندري إن كان السبب هو حماقة الإنسان أم قانون الطبيعة.

٤- أفلاج القرون الوسطى:

رغم أننا لا ندري من كانوا سكان الأفلاج القدماء، لكن الآثار المتبقية حتى يومنا هذا من الأعمال اليدوية تجعل الاحتمال الأكبر هو أنهم ما كانوا من سلالة عربية وأن أرومتهم التي انفصلوا عنها ليستعمروا أجزاء في عمق الجزيرة العربية، كانت ذات حضارة أعظم من كل الحضارات المحلية التي سادت حينذاك بين الجماعات المختلفة في الجزيرة العربية باستثناء حضارة السبأيين في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة. إن استمرار مخلفات قديمة في الأفلاج ذات صلة بقوم عاد حتى يومنا هذا، وكذلك قلة المتوافر في أيدينا من معلومات، إضافة لما نعلمه من أن المرتفعات الجنوبية الغربية كانت على مرّ العصور مصدراً للهجرة البشرية التي زادت أعداد السكان بالجزيرة العربية.

كل هذا يجعلنا حذرين في أن ننسب ونجعل مصدر الحضارة القديمة في أقاليم وسط الجزيرة العربية هو الشرق بدلاً عن الغرب. ولكن من ناحية أخرى فإن غياب الخرائب من النوع الموجود في الأفلاج والخرج عن كل المواقع الأخرى بطول الطريق المؤدي من الأفلاج للجنوب وخاصة وادي الدواسر، وكذلك التشابه العظيم في نظام قنوات الري في الأفلاج والخرج من جانب مع تلك الموجودة في الأحساء ومنطقة القطيف من جانب آخر، وكذلك ما نعرفه من أن الساحل الشرقي للجزيرة العربية كان فيما مضى من زمان -ولفترة طويلة- تحت هيمنة الفرس^(١)، كل هذا يجعلنا ننظر إلى الشرق وليس للجنوب الغربي لتفسير الظواهر التي نجدها في هذه الأنحاء.

(١) لم يكن مشرق الجزيرة العربية تحت هيمنة الفرس بل كانت السيطرة عليه عربية بحتة ثم أعقبها سيطرة العثمانيين عليه إلى أن تنازعها في ذلك البرتغاليين في فترات ليست طويلة ثم أصبحت تحت السيطرة العثمانية والعربية بالتناوب ثم آلت إلى العرب. (المراجعون).

ليس من الضروري أن نتجشم عناء التحقق من أمر لا نستطيع حسمه، ومهما يكن الأمر فليس هناك من شك في أن استعماراً لاحقاً حدث لإقليم الأفلاج من الجنوب الغربي في موجات غزو متلاحقة، خلفت ثلاث منها على الأقل آثاراً وأناساً في الإقليم. إحدى هذه؛ غزو الأشراف قبل ثلاثة قرون، وهو أمرٌ أشرت إليه سابقاً عندما تحدثتُ عن واحة السيح، وتتجلى في واحة البديعة الآثار الأخرى.

وقبل أن نغادر ليلى لنعاود المسير نحو الجنوب كان لا بُدَّ لنا أن نحري بعض التعديلات اليسيرة في مجموعتنا لنملاً الخانتين اللتين شغرتا، إذ أن المحمدين ما كانا يستطيعان مواصلة الرحلة معنا بعد حدود الأفلاج بسبب ديات دم لما تحسم بعد مع فخذ الوداعين من قبيلة الدواسر الذين كان علينا أن نمرَّ بأرضهم بعد أن نغادر إقليم آل حسن. لقد سبب لي ذهاب الفتى الذي انضمَّ لمجموعتنا في الدلم أسىً حقيقياً، وسأذكره دوماً كأحد المبرزين القلائل؛ زميع ومترك وجابر وحسن وعرفاني وقليل من الآخرين، وكلهم قدموا لي خدمات جليلة أثناء إقامتي في الجزيرة العربية.

وعندما بلغنا أم الشناظر حيث تقيم زوجته التي لم يرها منذ أشهر، لم يشأ أن يتركنا قبل أن يفني بالتزامه معنا، وجاء إلينا في اليوم التالي في ليلى وبقي معنا حتى اليوم السابق لرحيلنا، حيث فارقنا عائداً إلى داره. مثل هذه الأشياء نادرة الوجود بين العرب، ولم يشأ طامي أن تمرَّ هذه الحادثة دون أن يهزأ بالرجل، ولكن كانت لمحمد الغلبة في التناوش. ولم يكن هناك من سبب يجعل محمداً يندم - على الأقل فيما يخصني - للالتزام الحرفي بعهده. لا أشك في أن الرجل كان سيرافقنا نحو الجنوب لولا المطالبة بدية الدم التي نجمت عن قتل أخيه لرجل من الوداعين، ولقد ظلَّ لسنوات طويلة يحاول جمع المال اللازم للدية التي حدّد العُرف قيمتها

بمبلغ ٨٠٠ دولار تدفع لأولياء الدم. ساهم ابن سعود بمبلغ مئة دولار للصندوق الذي بقي عليهم جمع أكثر من ثلاث مئة دولار أخرى حتى يكتمل وهو الأمر الذي سيستغرق عدداً من السنوات. أمّا سَمِيهٌ فلقد كان لا مبالياً ولم يكن له ما يميزه، ولقد دَلَّت السنوات الخمس التي قضاها محباً للراعية -التي أصبحت زوجته الآن-، على روحه العاطفية التي ما كان للمرء أن يتوخّاها فيه لما يبدو عليه من مظهر باهت وهمة فاترة، ولم أستطع مقاومة الشعور الذي انتابني من أن حجة دية الدم التي ادّعاها مع الوداعين لم تكن سوى غطاءً لمحاولة العودة المبكرة لعروسه.

لكنني لم أعترض على ذهابه على أمل أن نستطيع أن نستبدل به شخصاً آخر من قبيلته يكون أكثر مقدرةً على التفاهم والتواصل. ملأنا الخانتين الشاغرتين بأن ضممنا إلى المجموعة رجلاً يدعى صالحاً وهو من مواطني وادي نجران وأحد أفراد قبيلة عرجا الذين ينحدرون من قبيلة يام، وبذلك يدعون قرابةً رحم مع آل شامر والعجمان - مثل حداة ركبنا. وكان الآخر طويرش وهو ودعاني من فخذ الحنيش وكان موطنه في السُّلَيْل، وكانت طريقته في الحديث تستعصي على الفهم، إضافةً لخنّة أنفية رهيبة وطباع جافة فظة لا تَسُر. وفوق كل هذا كانت تعوزه لحدّ كبير الصفة التي ادّعى إبراهيم أنه قد تعاقد معه بسببها، وهي المعرفة بالإقليم. وعرض رجل آخر خدماته في ظروف غريبة بعض الشيء.

كنا ركبنا نخرق واحة الخرفة وكنت قد انفردت في مقدمة الركب عندما لاحظت أحدهم يلبس عصابة الرأس الخاصة بالأخوان متجهاً نحوي من أحد الجوانب، ولأني لا أود أن أؤذيه بتحية لا مبرر لها تابعت سيرتي وكأنني لم أره. لكن تحركاته كانت مقصورة تماماً وعندما اقترب مني محاذياً بادرنبي: «سلام عليكم»، وأجبت: «وعليكم السلام»، ثم صحبني وطفقنا نتحدث. أخبرته عن

وجهتنا وسألته بعض الأسئلة عن الوادي فأجابني بحديث رجل لرجل دون أن يبدي امتعاضاً لرفقتي أو رغبة في الإسراع ليذهب عني بعيداً. أخبرني أنه أحد إخوان سبع بالضيعة وأنه كان بالقرية عندما مررنا بها، وأنه سمع عني، وأنه كان في طريقه إلى البديع لبيتاع «ذلولاً»، ولكن كان من المحتمل أن يفوق سعر الذلول ما بحوزته من مال. فقلت له: «انظر، إن كنت بحاجة للمال لماذا لا ترافقني إلى الوادي؟ وعند عودتك سيكون لديك من المال ما يكفي لشراء الذلول».

كانت فكرة ضمّ رجل مثله لمجموعتي بمحض إرادته أمراً قد راق لي، ولدهشتي أبدى استعداده لمرافقتنا. لذا دعوته إلى تناول طعام الإفطار معنا وأن يقوم في الأثناء بترتيب الأمر مع إبراهيم للانضمام للمجموعة. وافترقنا بعد الإفطار وأنا أظن أننا سنلتقي ثانية في البديع، لكنني لم أره بعدها قط، وعلمت فيما بعد أن إبراهيم ثبط همته، لأسباب منطقية خاصة به.

استمر الشريط الرملي الذي ذكرته سابقاً والذي يفصل بين الأفلاج القديمة والأفلاج الحديثة، واستمرّ ممتداً نحو الجنوب بطول الحافة الشرقية للغضرا حتى نقطة تقع خلف واحة البديع. وتمت زراعة خط عرضي من الأثل «صدّة» منذ عهد قريب لحماية الواحة من تراكم الرمال التي تأتي بها الرياح الشمالية، ولكن يبدو أن المحاولة لم تكن ناجحة إذ أن الرمال تكوّمت عالياً في الجانبين الشمالي والشرقي للواحة، وقد تأثرت بساتين النخيل كثيراً بهذا السبب.

تقع واحة البديع على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من ليلي، ويقال إنها كانت المستوطنة الرئيسة للإقليم أثناء المراحل الأولى للغزو العربي الذي أتى من الجنوب الغربي. وتحتل الواحة مساحة أربعة أميال مربعة. جزء كبير منها تغطيه بساتين نخيل رديئة مبعثرة، بينما بقية الأرض - ولعلها أكثر من نصف المساحة

== قلب الجزيرة العربية ==

الاجمالية- أرض قاحلة توجد بها رقاع متفرقة من أراضٍ مخصصة لزراعة الحبوب، أو مناطق سكنية، أو خرائب لمساكن قديمة. يتفرع شعيب حصرج بعد أن ينبع من مرتفعات طويق لفرعين يجريان بالعرض ويسقيان الأجزاء الجنوبية والشمالية من الواحة تحت اسم حرم وخر، على التوالي.

وتنقسم الواحة إلى ثلاثة أجزاء محدّدة هي سلمى وقرينة وهدام. والحد الفاصل بين الجزأين الأولين -الذين يضمنان معاً كل المساحة المسكونة والمزروعة- هو مجرى خر، في حين أن جزء هدام الذي يقع شرق وشمال شرق سلمى ما هو إلا خرائب مبعثرة في اضطراب لمدينة كبيرة درست وغطّت معظمها الرمال المتحركة. جزء سلمى أو القسم الشمالي، الذي يحتل حوالي ثلثي كل الأرض الصالحة للزراعة يُسقى من مجرى سيول حرم الذي ينضب معين سيله عند بلوغه بساتين وحقول ذلك الجزء، كما يسقى بدرجة أقل من مجرى الخر، وهو الأقوى بين المجريين ولا يزود قرينه بالماء فحسب، لكنه من القوة بحيث اختطّ لسيره عبر الزمن مجرى عميقاً عبر هضبة الغضرا التي تمسّ المستوطنة في هذا الموقع ليصل في النهاية لبنة. وخلافاً لهذا فإن بساتين الجزأين تعتمد على آبار عديدة أعماقها في المتوسط بين سبع إلى ثماني قامات تُسحب مياهها عادة بواسطة الإبل. وتشابه الزراعة بالواحة ما رأيناه في المستوطنات التي تقع إلى الشمال، ولكن البديع تسمّ الحدّ الجنوبي لزراعة الرمان الذي لا يوجد -لسبب ما- في مستوطنات وادي الدواسر.

تقع رابية قرين البارزة على بعد ميل واحد شرق قرينة فوق هضبة الغضرا وتطلّ على الجانب الأيمن للخر. ويحيط بالرابية حقلٌ متسع من الخرائب من بقايا الحجارة التي يعود تاريخها بلا شك للحقبة التي وصفناها في الفصل السابق،

ويمكن أن نعدّها جزءاً من مستوطنة بنة القديمة وليس البديع . ولقد نقل لي الأمير أن أول سكان البديع فيما تحكيه الروايات القديمة هم قبيلة أو عائلة الأصفر التي لا يعرف شيء عن تاريخها سوى أنهم طردوا أو أبعادوا على يد عشيرة الجمالان التابعة لعنزة الذين احتلوا الإقليم -أو على الأقل- هذا الجزء منه، قبل أن يتقهقروا بدورهم تحت ضغط الدواسر، ليذهبوا نحو الشمال قبل حدوث مواجهة عاصفة . ولم يخلّفوا وراءهم ما يوحي باحتلالهم للإقليم سوى أثر واحد سأعرض له بعد قليل، وبقي حتى يومنا هذا في مرتفعات طويق التابعة للأفلاج . باستثناء الخرائب القديمة في قرين، فإن أول موقع استيطان في البديع هو بلا شك ما تمثله خرائب هدام التي تنبئ أسوارها الطينية القوية ومبانيها المهيبة أنها كانت مدينة محصنة ذات حجم ضخم وأهمية كبيرة - ولعل عنزة هي التي بنتها وهي أول موقع إذا ما أهملنا ما رُوي لنا عن الأصفر، والتي قد لا تمثل سوى أسطورة هلامية عن الماضي السحيق كأسطورة أرض عاد بالسيح .

مهما كان الأمر فإن عنزة قد احتلت -إن لم يقوموا ببناء- هدام التي ظلت تلاماً من الحطام والخرائب عبر الأزمان التي ظلت في ذاكرة التاريخ، أو لعلها أحييت إلى تلك الحال بفعل الدواسر المغيرين، الذين استبدلوا بالمركز العام الذي أقام فيه أسلافهم قرى متناثرة تدلّ أكثر من أي شيء آخر على الغيرة الضيقة والتحزب الدموي الذي جعل اسم القبيلة مضرِباً للأمثال في وسط الجزيرة العربية . كان سكان البديع -كما هو الحال مع بقية الإقليم- من مجموعة الحسن، ويحتل قسمي القرية حتى يومنا هذا سلالة المستقرين الأوائل : قسم الصخّابة في سلمى، والشكرة في قرينة .

في الجزء الأول (سلمى) يوجد عدد من القرى الصغيرة و القصور، وسلمى هو اسم أكبر هذه القصور، وتقع في قلب الواحة على وادي حرم، وتتصل معها قرية صغيرة أخرى تسمى سوق، وكونت الاثنان فيما يبدو قرية واحدة، حتى أزيلت التحصينات المحيطة بهما معاً بواسطة عبدالله بن سعود^(١) عندما هبت هناك انتفاضة وتمرد ضد سلطانه في نفس الوقت الذي قامت فيه حركة المبرز تقريباً. ما زالت هناك بقايا قائمة للحائط القديم، لكن سوق لا تعدو عملياً أن تكون قرية صغيرة مكشوفة تكثر فيها الأسوار العالية^(٢) والحصون السميكة بسلمى، والتي يجوز أن عبدالله قد تركها دون أن يحطمها، أو أن بناءها قد أعيد بعد ذلك.

لا يوجد بالقرتين معاً سوى خمسين بيتاً. أما القرى الأخرى في هذا الجزء فهي بطينة التي تتكون من ثلاثين بيتاً، وأم الزبيّة ومشرف. والقرتان الأخيرتان خربتان، وتقع مشرف على بعد ميل خارج حدود الواحة من الناحية الشمالية. أما مستوطنات الجزء الجنوبي فهي قرينة نفسها وهي قرية متضامة بها حوالي ثلاثين مسكناً، وقصر العلا وهي قرية أصغر وبها قصور متناثرة. يبلغ تعداد السكان بالبديع تقريباً ١٠٠٠ نسمة، رغم أنه يمكن مضاعفة هذا الرقم إن أخذنا في الحسبان عناصر البدو الذين يعتمدون على الواحة. وكانت الرقعة المزروعة فيما مضى من زمان محاطة فيما يبدو بسور، ولكن لم يتبق منه إلا أجزاء متفرقة بعد أن دمر الأجزاء الأخرى عبدالله بن سعود، أو -وهذا أكثر احتمالاً- دمره الدواسر أنفسهم عندما احتلوا الناحية في البداية.

(١) الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي. (المراجعون).

(٢) ارتفاعها حوالي أربعين قدماً. (المؤلف).

== الجزء الثاني ==

رحب بنا أمير سلمى عند وصولنا، واسمه مرضي وهو من قسم الصحابة التابع للدواسر. وأولى الأمير أمر راحتنا واستيفاء متطلباتنا كل عنايته وحرصه رغم تقدمه في السن، وتناول معنا الوجبة في الليلة التالية، وتجلّت لنا شخصيته الباهته وعزوفه عن الحديث رغم أنه أخبرني بما سجلته هنا عن تاريخ الواحة، ولقد كان هو نفسه شاهد عيان لرد فعل عبدالله. أما ابنه محمد فلقد كان في حوالي الأربعين من العمر، وكان متحدثاً لبقاً وذا شخصية محببة. ولقد تکرّم بمرافقتي في زيارتي لبنة بحثاً عن الحجر المنقوش. أما الجيل الثالث للعائلة نفسها فهو ابن محمد الذي رافق جده عندما تناول معنا الطعام.

٥- على حافة الربع الخالي

تقع صحراء البياض الشاسعة إلى الجنوب من الأفلاج، وتجري حافتها الغربية في اتجاه الجنوب تقريباً لمسافة تربو على مئة ميل من خط عرض الخرج. ويمتدّ من هذه القفار نتوء ذو رأسين نحو الغرب ليلاصق المنحدرات الخارجية لهضبة طويق التي يتحول تصريف مياهها جزئياً - بعد أن يحبسها هذا النتوء - نحو الشمال والجنوب ملتفاً حوله لتجري المياه بطول الخطوط الأكثر انسياباً. أما الجزء الأكبر من مياه التصريف فيستجّه نحو الكتلة المركزية لانبعاج البياض، فتدفعه للوراء بين الرأسين لتكوّن إسفيناً عريضاً هو الخليج المطوّق الذي يسمى المقرن. وهناك يكون المجريان العظيمان اللذان يسيلان من هضبة طويق، وهما الشطبة والضبعة: أودية عريضة تحفّها الأشجار وينحطان مساريهما بعمق ويحملان المياه في النهاية عبر حاجز الأحفاف نحو الصحراء، ويتركبان الكتل الصخرية الصلبة متناثرة في المنخفض فيبدو وكأنّ به تلالاً متفرقة.

في أزمان سابقة مازالت في ذاكرة المعاصرين - إن كان لنا أن نصدّق الروايات المحلية بشأنها - حين لم يكن هناك من الأمن ما يسمح بالسفر الآمن، وحين كان منخفض المقرن جافاً - إلاّ في موسم السيول - كانت القوافل تتخذ مساراً دائرياً بطول الجوانب الخارجية لهذا النتوء الصحراوي في طريقهم للأفلاج عن طريق واحة الشطبة الصغيرة الواقعة في طيّات طويق، والتي كانت الموقع الوحيد الذي يمكن أن تستقي فيه القوافل في طريقها بين حمام والبديع. ولا بدّ أن طول الرحلة حينها كان يُعادل طولها الحالي مرّة ونصف، إذ أن الطريق الجنوبي الغربي المباشر وهو الذي اتبعناه للسُّلَيْل يسير عبر نتوء البياض بطول قاعدته ويمرُّ بإزاء برك المقرن

== الجزء الثاني ==

وهي مصدر ماء تتوسط المسافة بين البديع وحمام. هذا الطريق المباشر طوله حوالي ١٢٠ ميلاً.

بعد أن غادرنا البديع سرنا ثمانية أميال، وقادنا الطريق فوق ما تبقى من سهل الأفلاج الذي كان سطحه ينحدر بلطف نحو الجنوب الشرقي، كما كانت تربته طفلية رملية خفيفة تتعاقب مع شرائط عريضة من الحصباء مع قدر وافر من نباتات قصيرة خشنة. وفي منتصف الطريق عبرنا المهد الرملي الخفيض لشعيب مُسرّجة، وهو مهد للسيل صغير يأتي من المرتفعات.

وبعد ذلك بقليل بلغنا حدود الإقليم في مهد شعيب الحنو الواضح المعالم، وهو مجرى مائي رملي عرضه حوالي خمسين ياردة ويجري بين شطين ارتفاعهما قدما من غرب طويق بطول الجنب الشمالي لتتوء البياض ثم يضيع في القفار في ناحية الشرق. وكانت على جانبي المجرى المائي الكثير من النباتات؛ شجيرات الشار والسلم وأعشاب متعددة الأنواع.

بعد ذلك بلغنا ربوة صغيرة تسمى خفيسة، يلتصق بها مجرى للتصريف يحمل الاسم نفسه. كانت هذه الربوة تسم البداية للقفار الحقيقية، أو الامتدادات الشاسعة من الصحراء المغطاة بحصباء رمادية اللون لا يحدها سوى الأفق الذي ارتقت إليه بدرجة تحدّرٍ ولا تكاد تحسّ. اطلعتُ من قمة الربوة على مشهد فسيح متسع بيد أنه لم يكن يوحى بشيء. كان من ورائنا سهل الأفلاج الرتيب مع بقاع خضراء صغيرة، وكان يسند السهل من الخلف حاجز طويق. وكان أمامنا الربع الخالي -الخالي من الماء- وكنا على وشك أن نعبر حافته إذ أن العرب يعتقدون

-وهم محقون في ذلك- أن البياض هي حافة الربع الخالي، رغم أن الرمال التي يقصر عليها الجغرافيون ذلك الاسم تقع على مسيرة أيام عديدة في اتجاه الجنوب والشرق. كان التموج اللطيف لطليعتها مثل أمواج بحر تتكسر على خط الساحل. وكانت الصحراء الناعمة تستكن خلف محيط هادي التموج يضرب في هذا الموقع وذاك بسلاسل تلال وعرة.

ترك مرور عدد لا يحصى من القوافل طريقاً عريضاً حفر عميقاً في التربة القاسية بطول قناة شعيب سدير الذي يصرف مياه المنحدرات الشمالية لهذه المنطقة في اتجاه الحنو.

وسرنا وقد أخذ منا النصب مأخذه بطول هذا الشعيب في وسط تلك القفار، حتى بلغنا بدايته في أرض وعرة وسمت التمايز بين التصريف الشمالي وذلك الذي ينحدر نحو منخفض القرن. ولم يكن هناك معلم يحيي موات المشهد الرتيب الممتد لمسافة أربعين ميلاً بعرض الرأس الأول للتواء الصحراوي الذي تحدثنا عنه سابقاً. ووجدنا في موقع ما بجوار الطريق نصباً صخرياً غريب الشكل مكوناً من ألواح صخرية حادة اصطفت امتداداً لممر. وكان الممر نفسه مبطناً من الجهتين بألواح شبيهة امتدت منه نحو الطريق، وكان في الجوار لوحان صخريان مسطحان يبعدان عن بعضهما مسافة خمسة عشر قدماً. كانوا يسمون هذا المكان قمر الهضاب. ماذا كان يعني هذا الاسم؟ ومن كان هضاب؟ هذا ما لم يستطع أحد أن يدلني عليه.

وبعد ثلاثة أو أربعة أميال إلى الأمام تقف شجرة طلع وحيدة، وهي موقع

= الجزء الثاني =

مفضل لتمضية القيلولة، وتعرف باسم شجرة عوآد. وبعد ذلك، وعلى بعد مسافة مشابهة، وبالقرب من منبع الشعيب كانت توجد رقعة بها نصبٌ صخرية تشبه لحدٌ كبير خرائب الأفلاج القديمة رغم أنها كانت بعيدة كل البعد عن أي مركز محتمل لسكن البشر. لذا ما كان من الممكن ربطها بالأفلاج. هنا تخللت سطح الصحراء سلاسل تلال متناثرة تباينت ألوانها من اللون الرمادي للون الأسمر الفاتح مع خطوط ورقاع من اللون الأسود، حيث غطت الحجر الجيري طبقة خفيفة من الحجر الرملي مع زوائد مسطحة القمة أو مخروطيتها وقد دكن لونها وكأن ذلك بفعل النار.

كان أول ما مرّ بنا في الطريق من مظاهر الحياة مجموعة من نساء الهواملة - وهم قسم شيخ سهمي - يشقن طريقهن من مخيمهن في جوار المقرن، قاصدات ليلى لابتياح بعض المؤن. كان عدد النساء نحواً من اثنتي عشرة وكن يركبن معاً أمام أربعة أو خمسة من الحراس المرافقين الذين تبادلنا معهم التحايا والأخبار. ولقد أبدوا سعادتهم بعودة زعيمهم من مهمته في يبرين ولكنهم شعروا بالإحباط عند سماعهم بنتيجتها. وبعد ذلك بقليل مررنا بمجموعة قوامها ستة من العبيد من قسم ولأمين الوادي، وكانوا في طريقهم - كما أخبرونا - بحثاً عن الثروة في مهاد اللؤلؤ في الشاطئ الشرقي.

هكذا يفعل كثير من سكان الداخل، ويعودون في معظم الحالات بعد عدد من سنوات الكدح ببضع مئات من الدولارات تكفي للزواج ولتأمين بيت مع قليل من الضأن أو ناقة إن تيسر ذلك، وليعيشوا بعدها في غنى نسبي لبقية أيامهم في الحياة. بيد أن بعضهم لا يرجع ثانية حيث يستهويهم سحر حياة البحار أو ترف

الحياة المدنية في بلد بعيد. أخبرنا أفراد تلك الجماعة أنهم سيسIRON للامامة ثم يتوجهون بطول صباحا ليستقوا من آبار الوساعة جنوب أبي جفان ثم عبر الدهناء للأحساء. وهناك طريق مباشر بين الوساعة والأحساء يمر بطريق آبار الوساعة، ولكنها مغامرة لا يقدم عليها إلا من يعرفون هذه الأنحاء معرفة جيدة يضمنون بها ألا يضلوا طريقهم في البياض، وهناك يقطعون فيها ٥٠ ميلاً هو عرض الصحراء التي ليس فيها طرق أو مسارات مطروقة. أخبرني بكل هذا مترك الذي كان قد سلكها من قبل. ومررنا قبل أن يحلّ الظلام بمجموعة أخرى في قافلة محمية صغيرة من الإبل. كانت تسع من الإبل محملة ببُنّ اليمن المعبأ في أكياس كبيرة، يحتوي كل منها على ثمانين وزنة^(١) من الثمار الغالية، وكانوا في طريقهم إلى الحوطة، وهي الحدود الشمالية المعتادة لتجارة البن في الوقت الحالي، إذ أن بنّ اليمن يُعدُّ ترفاً في الرياض وما بعدها، ويأتي به من سوق الحوطة من يستطيعون دفع ثمنه.

قمت في البديع في اليوم السابق بتدخين آخر ما تبقى لي من تبغ. وكنت أتوقع متاعاً من الكويت ولكن لم يصل حتى غادرنا الرياض، وكنت قد تركت أمراً أن يُرسل إليّ على جناح السرعة بعد وصوله، ولكن لم يكن هناك من أثر له. كان المستقبل في هذا الجانب يبدو قائماً -جَدَ قاتم- إذ ليس التبغ فقط بل أفلام آلة التصوير أيضاً كانت قد شارفت النهاية، ولقد كان السفر دون هذه الضروريات محققاً مؤلماً. بيد أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى الصبر بقدر الوسع.

(١) راجع الحاشية صفحة ٢٤٤. (المؤلف).

وكانت الصعوبة في الحصول على أفلام تفوق العجز عن شراء التبغ بدرجة واحدة ليس إلا، إذ أن بحث إبراهيم ورفاقه عن التبغ في الأفلاج أسفر عن عثورهم فقط على كمية ضئيلة تقل عن ربع أوقية^(١)، وهو ما يملأ فنجان قهوة، وطلبت صاحبتة - وهي امرأة من السيح - بكل صفاقة مبلغ دولارين. كان الثمن المطلوب يدل على محاولة للربح الخسيس وهو أمر لم أقره، وتابعنا سيرنا بلا تبغ، وبقينا هكذا - بلا تبغ - لمدة عشرين يوماً أخرى إذ لم يكن في الوادي شيء منه. بقيت منتظراً تبغي الخاص حتى يوم ٦ يونيو (حزيران). لقد أحس إبراهيم ورشيد بوقع نفاد التبغ بنفس الحدة التي أحسسته بها، ولكن من العدالة أن أسجل أنهما في اليوم الأخير أصراً على تخصيص ما تبقى من تبغ لاستعمالي دونهما، وكانت النتيجة أن دُخنت ثلاثة غلايين بعد أن توقفوا هم عن التدخين. بعدها صرنا جميعاً بلا تبغ، بيد أن إبراهيم لجأ لكشط الرماد عن كل غلاييننا وقام بتدخين ما تجمع لديه منه.

كانت الهضبة المتموجة التي تتكوّن من سلسلة من المنخفضات تُعرف كلها باسم الكرمديات، وهو اسم مشتق من الكرمدية^(٢)، اسم أكبر هذه المنخفضات. كانت هذه الهضبة هي الحد الفاصل بين التصريف المتجه نحو الشمال وذاك المتجه نحو الجنوب. وكل واحدة من هذه المنخفضات مستقلة عن رفيقاتها، وفي مهادها جميعاً أشجار السنط والشجيرات الأخرى. ووقفنا على الأرض المرتفعة التي

(١) الأوقية وحدة وزن تعادل حوالي ٢٨ جراماً. (المؤلف).

(٢) أسماء أخرى لهذه المنخفضات هي: نقعة الشجيرة ومُسْرَحَة ونقعة العبيد وأبو طلع وأم السمرة. (المؤلف).

تفصل الواحدة منها عن الأخرى وأصبح بإمكاننا أن نطلّ على مشهد بدت أمامنا فيه الأجزاء المرتفعة في منخفض القرن وهي: سلسلة التلال الصغيرة المثلمة المكوّنة من الحجارة الجيرية والتي تسمّى الفرد، وسلسلة تلال مغالي في اتجاه الغرب والجنوب الغربي نحو طويق، ثم السلسلة والجبل ذو القمّة المسطحة المسمّى الكدرات، وسلسلة التلال الخفيضة ختيمية في الاتجاه الجنوبي الشرقي عن يسارنا. وكانت تبدو في اتجاه الجنوب، صوب آبار القرن سلسلة عقرة السوداء والمخروط الأسود المسمّى عبيد القرن والسلسلة الصفراء الطويلة المسماة برقة السكون والرابية السوداء المدوّرة: الدنان التي تسمّ موقعاً لجُبّ ماء خامد. وبدأت أمامنا في السهل رقاع داكنة من أشجار جيدة النمو، إلّا أن المنطقة كلها بدت وكأنّها تعرّضت لحريق هائل.

كانت إبل الهوملة ترعى منتشرة في المنحدر المتجه جنوباً وفي المجاري الضحلة لشعبيّ مريخة وهاوي، وكانت أعدادها تزداد كلما دلفنا وتوغلنا في المهد الذي تغطيه الأشجار وهو مهد شعيب هوزعية الذي ينبع في سلسلة تلال الفرد. بعدها دلفنا إلى شعيب الشطبة: أحد الواديين العظيمين لمنخفض القرن. دلّ وجود بئر سحب مطمورة عند التقاء هذين الشعيبين لموقع سقيا قديم احتلت مكانه إحدى الظواهر العجيبة للصحراء: وهي الخفس. وبلغنا هذا الموقع بعد عبورنا لحاجز كثيف من أشجار السنط جيدة النمو وأشجار السرح، وأشجار أخرى. وكانت البركة وهي واحدة من ثلاث برك تكوّنت منذ عهد قريب - إذ يبدو أنها تكوّنت في زمان يتذكره المعاصرون الآن - وصار صقع القرن مَعْبَراً للطريق الجنوبي العظيم وموقعاً مفضلاً للبدو في ترحالهم وراء قطعانهم.

تزامن وصولنا للخفس الأول حيث أنخنا للقلولة لمدة أربع ساعات، تزامن مع استقاء دوري للهواملة الذين حضروا ومعهم إبلهم الضخمة الداكنة اللون. تُعرف إبل الدواسر بأحجامها الكبيرة وكميات اللبن الوفيرة التي تنتجها. ويحضر الهواملة للخفس كل أربعة أو خمسة أيام من البياض والمراعي الأخرى الموجودة في الأنحاء. ونُصبت الخيام في مجموعات تناثرت في كل الوادي، وكانوا يردون الماء جماعة إثر أخرى، وهي عملية تستغرق منذ ابتدائها حتى الفراغ منها ما يربو على اليومين. وكانت خيام هذا القسم من القبيلة تتكون من قطع قماش سوداء قصيرة مهلهلة توضع فوق أعمدة قصيرة، وفي بعض الحالات لم تتعدّ الخيام شرائح من حصير سعف النخيل تُفرش على أعمدة وتغطيها بعض فروع الأشجار التي تحتطب من الأشجار المجاورة. وكونها قاعده عامة كانت كل خيمة تؤوي عائلة واحدة، ولكن في بعض الأحيان - كما أخبروني - يُمكن لأخوين أن يتدبرا أمرهما بالإقامة في خيمة واحدة، وتحتل الأسرتان طرفي الخيمة دون فاصل بينهما ودون عقد. لم يُظهر البدو احتجاجاً لإقامتنا بينهم بل أفسحوا لنا المجال لنسقي إبلنا بالطريقة التي تروق لنا، بيد أنهم لم يبذلوا جهداً للتقارب معنا رغم أن مجموعات من النساء والأطفال الذين لم يكن هناك ما يشغلهم قد داروا في فضول حول خيمتي. وأجرينا معهم مناقشات لشراء ذلول لأنني كنت حريصاً على أن أعود ومعني حيوان ممتاز حقاً لأهديه لابن سعود، ولقد قمت بتفحص ناقة كانوا قد طلبوا ٣٠٠ دولار ثمناً لها، ولكن لم يتم الشراء إذ أنهم لم يوافقوا على اشتراطنا بأن نعيد الناقة إليهم بعد التجربة إن لم تروق لنا.

اتخذ الخفس الذي خيمنا بإزائه شكل النجمة، صدعٌ في الأرض يبلغ طوله نحواً من خمسين ياردة، وعرضه ثلاثون، ويبلغ عمق الماء حوالي ثلاثة أقدام في

المنتصف مع انحدار لطيف نحو الشواطئ. وكانت تحيط بالخفس أجمة كثيفة من الأشجار الظليلة، وموقعها على أحد جوانب الوادي بالقرب من سفح سلسلة البياض، وكانت متصلة مع مجرى سيول الشطبة بواسطة عدد من المجاري الضيقة. ويلتقي وادي الشطبة الذي يسيل من منحدرات طويق بطول الجانب الشمالي لسلسلة تلال مغالي، مع شعيب الضبية الذي ينحدر بطول الجانب الخارجي لنفس التلال ليكوناً معاً مجرى واحداً يمرُّ عبر صخور البياض الشاهقة بين رابية الدنان وسلسلة عقرة. ويحدث التقاء الشعيين هذا على بعد ميل واحد - أسفل طريقنا - من الموقع الذي كنا فيه عند رابية من الحجر الرملي يسمونها برقة المانع. ويمرُّ شعيب صغير يسمى أم العطور عبر فجوة مركزية في سلسلة مغالي ليقترن بالشطبة بالقرب من برقة المانع. لقد ذكرنا من قبل شعيب هوزعيّة الذي ينحدر من سلسلة تلال فرد، وكذلك رآفديّة: شعيب هاوي وشعيب مريخة: وتكتمل شبكة التصريف لمنخفض المقرن بشعيب سحب الذي تجري مياهه نحو الضبية من مرتفعات فردة ابن مواش وهو الرأس الثاني لتتوء البياض. يمتدُّ لسان رملي ضيق نحو طويق بين مرتفعات مغالي وفردة ابن مواش ليفصل شعيب الضبية عن شعيب سحب الذي يجمع عند مروره بطول صخور البياض ومياهه صرف عدد من المجاري الصغيرة المنحدرة من المرتفعات في ذلك الاتجاه.

وبعد أن يلتقي وادي الضبية مع وادي سحب، يجري الوادي المشترك بطول صخور البياض الشاهقة، أسفل سلسلة تلال عقرة في مجرى الطلح. كما يوجد بالوادي الخفسان الآخران على مقربة من بعضهما ولا يفصل بينهما سوى مسافة ميلين. ويبلغ طول الخفس الأصغر منهما حوالي ٢٠ ياردة وعرضه ١٥ ياردة، وهو صدع عميق لا يبعد كثيراً عن سفح الصخور الشاهقة ويغطّي مهده الماء

= الجزء الثاني

لارتفاع قدمين. بيد أن حواف الصدع ترتفع بحدّة لستة أو سبعة أقدام مع وجود منحدرات حادة تقود إلى حافة الماء في مواقع متعددة يستخدمه الإبل والرجال للوصول إلى الماء. كان الخفس الثالث هو أكبر الثلاثة، وكان يتخذ شكلاً مستطيلاً بطول ثمانين ياردة وعرض عشرين ياردة، تحيط به وتظلل أشجار طلع طويلة، يحتوي الخفس على حوالي ثلاثة أقدام من الماء، وترتفع الحواف حوالي قدمين فوق سطح الماء. وكان عدد كبير من البدو قد تجمعوا حول الخفس ليسقوا إبلهم.

نصبنا خيامنا تلك الليلة في مجرى سحب أسفل صخور البياض الشاهقة. وفي صباح اليوم التالي تابعنا المسير مرتقين صخور البياض إلى طرفها الأعلى في قمة الرأس الثاني للتواء المذكور، تاركين سلسلة فردة ابن مؤاش عن يميننا ومُسَيَّجَرَات عن يسارنا. بعد هذه النقطة التي تسمُ الحَدَّ الجنوبي لإقليم الحسن، وبداية حدود مجموعات الوادي، هبطنا فوق سطح البياض المتموج الوعر لنبلغ شعيب عُدَيْر، وهو شريط ضيق تكثر به الشجيرات وتحيط به من أحد الجوانب صخور البياض الشاهقة ومن الناحية الثانية شعيب خفيض^(١) يواجه منحدرات طويق الخارجية وشعيب مرآن الذي تتصرف من خلاله مجاري منحدرات طويق في هذا الجانب، ويجري الشعيب الخفيض هذا موازياً لغدير نحو الجنوب -أي نحو وادي حمام-. ويغطي مهد الشعيب غطاء كثيف من أعشاب الثمام وشجيرات السرح والسلم ويغطيها جراد خامد وجراد ذو صوت ثاقب، وكان الأخير في أعداد لا تحصى. وكانت سيول الموسم الماضي قد خلّفت عدداً كبيراً من البرك في أجزاء

(١) يسمى: أم جدار. (المؤلف).

من المنخفض، سقينا إبلنا من إحداها. وحلّق حولنا على ارتفاع كبير نسرٌ أو طائر مثله، وكانت الغزلان البيضاء التي تعرف باسم الريم كثيرة جداً، وأضفى نوع من الطيور على المكان لوناً زاهياً، وأظنه الزرياب الأزرق.

لم يكن سيرنا أثناء النهار طويلاً، ولكن الإبل رغم حصولها على ماء لم تكن تتوقعه أبدت علامات الإنهاك. وعندما لاحت أمام أبصارنا نخيل مستوطنة حمام على القرب، قررنا التوقف قبل بلوغ المستوطنة. وزاد عدد أفراد مجموعتنا في القرن برجلين من قسم الدمنان التابع لقبيلة آل مرة كانا في طريقهما إلى السُّلَيْل، وكانا قليلي الكلام ولم تجلب صحبتهما لنا البهجة، ولم يكسر رتابة الرحلة سوى مرور قافلة تحمل البن قوامها سبع عشرة من الإبل في طريقها إلى الأفلاج. وتعرّض طامي في اليوم السابق لحادثة غريبة لم تظهر آثارها إلا الآن. كان هو وابن جلهم قد توقفا من أجل شربة ماء.

وبينما كان طامي منهمكاً وقد دفع برأسه إلى الخلف ورفع يديه يمتصّ الماء من قربة رقيقة، تحركت ذلوله فجأة إلى الأمام وتسبب ذلك في أن اشتبك أصبع قدمه الصغير في سرج ابن جلهم وكاد أن يُبتر إذ انكسر العظم منه ونتأ من خلال الجلد. تمّ لفّ الأصبع المكسور بقطعة قماش قذرة ونُسيت الحادثة حتى مساء اليوم التالي حيث شكّا طامي المسكين ألماً ودواراً وأوى إلى فراشه دون أن يتناول عشاءه. وظل يواجه صعوبة في المشي لعشرة أيام بعدها، ولكنه بعد ذاك التأم جرحه واستعاد حيويته، ولم يمض وقت طويل حتى استعاد الأصبع شكله الطبيعي وزالت كل آثار الكسر.

٦- وليم جيفورد بلجريف في الجزيرة العربية

نُشر في عام ١٩٠٤م كتاب خلاب مهم يحمل اسم «التوغّل في الجزيرة العربية» The Penetration of Arabia، كتبه السيد د. ج. هوجارث، الذي يمتلك - إضافة لإنجازاته الأخرى الكثيرة - معرفة لا تجارى عن شبه الجزيرة العربية وكلّ ما بها. ولقد اغتنم فرصة التوقف عن محاولات اكتشافها فجمع كثيراً من المعلومات الحديثة عن ذلك البلد المجهول. ولقد بنى جهوده على المعلومات التي أورثها للعالم خطّ طويل من المكتشفين والباحثين عن الحقيقة أو عن الربح أو الشهرة أو المغامرة. إنني أدين لذلك الكتاب الذي صحتني في كل تجوالي، أدين له بالإلهام الذي قادني بعرض الجزيرة العربية في العام الماضي، ودفع بي الآن لما وراء آخر الحدود التي طرقها كل من سبقني في اتجاه الجنوب. ولست مديناً للكتاب وحده ولكن للكاتب نفسه الذي أسعدني الحظ بالتعرّف عليه في جدّة في نهاية رحلة لم أكن لأقوم بها لولا تلخيصه لكلّ ما كان معروفاً حينئذٍ عن هذه الأنحاء.

في ظلّ هذه الظروف قد يبدو من غير اللائق أن أنتقد عملاً أدين له بقدر كبير. ولكن فيما يختص بنقطة واحدة لا تكون هناك مندوحة عن الانتقاد، بل يصبح لزاماً عليّ أن أقوم ببعض التوضيح. بيد أنّ انتقادي ليس موجهاً نحو السيد هوجارث أو الاستنتاجات التي توصل إليها من الدلائل التي كانت بين يديه، ولكنها موجهة نحو شخص آخر وثق هوجارث في أعماله كثيراً ووضعها في مرتبة تضاهي ما توصل إليه هو نفسه، بل وضعه في مقدمة المصادر التي بني عليها دراساته عن الجزيرة العربية. وسيظهر لاحقاً كيف أنّ وليم جيفورد بلجريف المغامر

اليسوعي^(١) لا يستحق إلا قليلاً من تلك الثقة. ولكنني أودُّ أن أوضح من البداية أن أولئك الذين يعرفون الجزيرة العربية من الداخل سيوافقوني على معارضة الحكم الذي أطلقه هوجارث عنه: «إن نظرنا لكلِّ مكتشفي الجزيرة العربية وأخذنا في الحساب كلَّ ما يتّصل بالاستكشاف من ناحية المساحة التي تمّت تغطيتها والمخاطر التي جوبهت والنجاح الذي تحقّق، نجد أنّ داوتي وحده هو الذي يمكن -بعدل- مقارنته ببلجريف»^(٢) لقد كان داوتي مؤلف كتاب «الصحراء العربية» -أعظم ملحمة في كل أدب الرحلات- رجلاً نسيج وحده، ولا تمكن مقارنته بمن سبقوه أو أولئك الذين لحقوا به في صحاري الجزيرة العربية. وكان أبعدهم عنه وأقلهم شأنًا مقارنةً به هو بلجريف الذي كان ما كتبه عن رحلاته - كما يقول السيد هوجارث - مناقضاً لما توصّل إليه هو نفسه^(٣). وأضيف أنا أنّه كان مناقضاً لهوجارث في كلّ شأنه. وقبل سنوات عديدة عندما كنت صبيّاً في المدرسة قرأت رحلات بلجريف وأعجبت بمغامراته المدهشة، ولم أكن أحلم بأنني سأعيد قراءة الكتاب ثانية بفكر ناقد في الجزيرة العربية نفسها في محاولة فاشلة لأطابق الحقائق التي أتحصل عليها من تجربتي الشخصية مع سرده الذي اخترع حقائقه وصاغها بمهارة كبيرة.

باءت محاولاتي للمطابقة بالفشل، إلا إذا افترضنا أنّ الحقائق الطبيعية للجزيرة العربية قد حدثت فيها تعديلات جوهرية في نصف قرن انقضى منذ زيارته.

(١) انضم بلجريف إلى الرهبانية اليسوعية في لبنان، وطاف المشرق متنكراً بزي طبيب سوري، وزار الجزيرة العربية بصحبة بطرس الجريجيري -بطريك الملكيين الكاثوليك- ثم ترك الرهبانية والتحق بالعمل في السلك الدبلوماسي. توفي سنة ١٨٨٨م العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص ٦١ (المراجعون).

(٢) كتاب هوجارث (D.G.H) ص ٣٠٧. (المؤلف).

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٧. (المؤلف).

وافترض كهذا رغم أنه غير وارد لذاته إلا أن الذي ينفيه بالكامل هي الصفحات الحبلى بالمعلومات للكتابين العظيمين اللذين ترك فيهما داوتي -الذي زار البلاد بعد خمس عشرة سنة- وصفاً كاملاً ونهائياً صالحاً لكل الأزمان لكل ما رآه وقاساه أثناء مغامرته. لقد كان من حسن طالعي أن تسلّمت الكتابين عبر صديق^(١) لم أكن أعرفه شخصياً أثناء إقامتي بالجزيرة العربية وأن أقرأهما وأنا أنظر لبعض المشاهد التي أوجت بكتابتهما واللذين يحملان عنها وصفاً رائعاً. وبحماسة تميّز المتطاولين دققت في ذلك السرد متصيّداً ما يمكن أن يكون بها من أخطاء، فوجدته بلا أخطاء. سيكون استطراداً بعيداً عن جوهر سردي إن أطريت على كتاب داوتي أكثر من هذا.

كان بلجريف غطاً آخر من الناس. كان سرده على الدوام محيراً ومراوغاً، وكان دخوله في التفاصيل الطبوغرافية أي الوصف الدقيق للأماكن وللسمات السطحية مربكاً للغاية. وكان أمامي خياران: أن أستبعد الدلائل التي أتوصل إليها أنا مستخدماً حواسي، أو أن أسقط بياناته ووصفه المناقض للحقائق والمعالم، وأن أعدها نتاجاً لتفاهة كامنة وثرثرة لمدّع عديم الملاحظة. ولقد تبنّيتُ غريزيّاً الخيار الأخير حتى ازدادت معرفتي بالبلاد وتمكنت أن أرى ما رأيت من منظور أوضح، حتى صار من المستحيل عليّ أن أعتمد على تقاريره خاصة عندما قام بوصف رحلاته التي قيل إنّها أول ما كُتب من مشاهدات أوربي للإقليم الواقع بين الرياض والأفلاج. كانت كتاباته عن هذا الإقليم هي دليلي الوحيد أثناء الأيام الأولى لرحلتي نحو الجنوب. ومن ثمّ توصّلت لنتيجة هي أن بلجريف لم يقم في حقيقة

(١) مونغلين (J. Mungavin)، كان حينها الوكيل السياسي بالبحرين. (المؤلف).

الأمر بزيارة إقليم الأفلاج على الإطلاق. كانت المناسبة الأولى التي أبدت فيها هذا الرأي صراحةً مع ملخص للأدلة التي بنيت عليها هذه النتيجة هي تقرير عن رحلتي للأقاليم الجنوبية كتبته فور عودتي للرياض، وطبع لاحقاً كمذكرة رسمية في الهند وفي مصر. وبعد عودتي إلى إنجلترا بقليل، وفي يوم ٢٨ أبريل (نيسان) ١٩١٩م وجهت الانتباه لهذا الموضوع بطريقة أكثر إيجازاً في ورقة عن جنوب نجد، قُرئت أمام الجمعية الجغرافية الملكية. وفي هذه المناسبة اعترض هوجارث متحدّياً النتائج التي توصلت إليها في هذا الشأن، ومعتزساً على الأدلة التي بنيت عليها نتائجي. واستجابة لذلك التحدي صعدت هجومي على صدق بلجريف على نطاق أوسع. وبعد مضي عام تجددت لديّ الفرصة في ورقة ثانية قُرئت أمام الجمعية الجغرافية الملكية وجهت فيها هجوماً قاسياً على وصف بلجريف للدهناء، وهو وصف لم يكن جديراً بالثقة. أرضاني أن تلقّيت تأييداً قوياً لوجهة نظري من جهة لم أكن أتوقعها، بينما امتنع السيد هوجارث من إبداء تعليقات إضافية حول الأمر. أثارت المسألة قدراً كبيراً من الاهتمام في مجالات أخرى ولها من الأهمية ما يستدعي مناقشتها هنا تفصيلاً لسبيين. الأوّل: أن بلجريف ليس حياً بيننا ليدافع عن نفسه، لذا يستحق أن يكون الحكم لصالحه ما لم تكن الأدلة ضده دامغة، وثانياً: لأنّ تاريخ التوغّل في الجزيرة العربية لا يمكن أن يكتب كتابة مرضية حتى يتبيّن موقع بلجريف بين المكتشفين المتعاقبين للجزيرة العربية وهو الأمر الذي اتضح الآن.

لا يمكن أن ينكر أيّ من قروءا كتاب السيد هوجارث أنه قد كان لبلجريف خلال السنوات الماضية أثر قوي عن التصرّؤ الأوربي للجزيرة العربية. ولكن نسبة للتزايد البطيء والمضطرد في معرفة الأجزاء الداخلية لشبه الجزيرة العربية، فإنّ

ذلك الأثر بدأ في التناقص . وأنا على يقين أننا الآن نعرف ما يكفي ليسوّغ لنا أن نراجع مراجعة شاملة وجهة نظر السيد هوجارث حين قال: «لابد أن نعتمد على بلجريف كحجة لنا فيما يخصُّ الجزء الأكبر من جنوب نجد، إذ ليس هناك غيره، وفي الأحساء نحن نعتمد عليه أكثر من اعتمادنا على أيّ من الآخرين»^(١). وفيما يلي أمل أن أوضح أن بلجريف وقع في الخطأ عندما تسبب في رفض النتائج التي توصل إليها أسلافه في إطار دراسة جغرافيا الجزيرة العربية . صحيح أن أسلافه توصلوا إلى تلك النتائج بمعلومات حصلوا عليها عن طريق وسيط، ولكنها كانت رغم ذلك أكثر قرباً للحقيقة من معلوماته هو شخصياً . ووقع في الخطأ أيضاً عندما تجاهل مسؤولياته نحو الأجيال التالية له فأعطانا تقارير تفصيلية عن بعض أجزاء الجزيرة العربية لتأييدها الحقائق . ولقد اعتمد إلى حدّ كبير أكثر على مخزونه من الخيال .

تتبع من الأحساء إلى الرياض - ولكن في الاتجاه المعاكس - الطريق الذي سلكه بلجريف في آخر مراحل رحلته الطويلة . وكانت إقامتي بالرياض في مجملها سبعين يوماً، وبقي هو بها اثنين وأربعين يوماً . وترسّمت خطاه مرة ثانية من الرياض للخرقة في الأفلاج . أمّا في الشمال فلقد ارتحلتُ فوق أرضٍ سار هو فوقها بين بريدة وقصيباء، وبين بريدة والزلفي . ولا أعرف شيئاً عن الإقليم الواقع بين نقطة بدايته في معان من جانب والجوف وحائل والقصيبة من جانب آخر . أما عن الإقليم بين الزلفي والرياض فلا أستطيع الحديث إلاّ عن وادي حنيفة بين سدوس والعاصمة . وفي كل جزء من أجزاء الرحلة التي كانت على مدى بصري

(١) كتاب هوجارث (D.G.H) ص ٢٣٦ . (المؤلف).

فإن بلجريف يمكن أن يُدان بأخطاء جسام، ويصير أثرها المتراكم جد عظيم. ولكنني سأبدأ برحلته من الرياض للأفلاج إذ كان الوصف لهذه الرحلة^(١) هو الذي أثار شكوكي حول صدقه.

يبدأ بلجريف الكتابة بطريقته السهلة المعتادة وكأنه سيصف رحلة قليلة الإثارة والأهمية فيقول: «حتى لا أقطع التواصل اللاحق لسردي حول الرياض، سأقوم هنا بإدخال كلمات قلائل حول رحلة قصيرة قمنا بها -بركات وشخصي - للأفلاج» وقام «استناداً على الذريعة الملائمة عادة» بمزاولة مهنة طبيّة، وفي أحد أيام الأسبوع الثاني من نوفمبر^(٢) (تشرين الثاني)، يصحبه تابعه الأمين، بركات وأحد المعارف الحديثين: بدع الذي لم يمنعه اسمه غير الملائم من أن يكون «رفيقاً ذا حيوية وطباع سهلة، ومحباً عظيماً للهو والمرح». كان هذا الرجل هو الذي اقترح الرحلة.

تتبعوا طريقاً في اتجاه الجنوب الغربي وعبروا وادي حنيفة حتى بلغوا هضبة جنوب الوادي، وكانت غير مستوية السطح وأكثر وعورة من تلك الموجودة شمال الوادي، ولكنها كانت من نفس الحجر الجيري والتكوين الكلسي، ويدراً عنها تهمة العقم والفراغ وجود بعض الأشجار هنا وهناك، ووجود قدر لا بأس به من أعشاب المراعي. وكان مجرى السيول الشتوية -ولمسافة عدة أميال- يسيل نحو وادي حنيفة^(٣)، ولكنها صارت بعد ذاك تجري في اتجاه جنوبي. في أمسية اليوم

(١) W.G.P الجزء الثاني، ص ٧٩-٨٢. (المؤلف).

(٢) عام ١٨٦٢م. (المؤلف).

(٣) أي في اتجاه شمالي إذ أنه وفقاً لإفادة بلجريف (راجع كتاب بلجريف الجزء الثاني ص ١٢٥) وادي حنيفة

نفسه لا يجري إلى الشرق أبعد من منفوحة. (المؤلف).

الأول بلغوا وناموا بقرية الصفرا على حدود إقليم العارض، وهي قرية بها فقط ستون مسكناً، كان بعضها من فروع النخيل والغماء (قش السقف) وتحيط بها أسوارٌ خربة من الآجر الطيني، ويزينها مسجد جديد أنيق.

وكان طريقهم في اليوم التالي يجري لعدة ساعات فوق مرتفعات، وتعرضهم من حين لآخر أودية رملية تتحدّر بالتدرج ولكن بطريقة ملحوظة نحو الجنوب الغربي. وكانوا الآن في الأفلاج، وفي حوالي منتصف النهار مروا بقرية مشاللة الكبيرة التي كان بها امتداد طويل لبساتين النخيل، ولكن كثافتها كانت ضئيلة، وكانت «الآبار غير وافرة الماء». هنا لاحظ بلجريف أن وجود القطن أكثر كثافة منه في إقليم العارض، كما كان الرجال والنساء يرتدون ملابس أقلّ طولاً. احتسبوا أثناء قيظ الظهيرة في منزل صغير بالقرية، وادّعى بدع معرفته لبائع متجول من بين أهل القرية.

يجري الطريق من مشاللة للخرفة «في الغالب في ممر ضيق عميق لدرجة ما» وكان جافاً إلا من بقايا سيول الشتاء، وتغطي جانبيه المرتفعين أعشاب ممتازة وقطعان، بينما كان في بطنه «قليل من بساتين النخيل، التي تحيط بها بيوت المزارعين». وداهمهم الظلام قبل أن يبلغوا الخرفة فهجعوا في السهل الذي تنتشر فيه النخيل بجوار الأسوار.

وفي اليوم التالي نسوا «الذريعة الملائمة» وهي العمل الطبي الذي أتى بهم إلى هنا، ورأوا «أنّه ليس من العقل أن يظهروا أمام حاكم الإقليم الذي يقيم هنا» ورفض بدع زيارته، كانت المدينة - إضافة لأنّها مقر الحاكم - تحتوي على أكثر من ٨٠٠٠ من السكان، وكان أكثر من نصفهم خلاسين «يكتفون من الكساء بلفّ

قماش بالية حول الخصر». ويذكر بلجريف هنا شيئاً عن الضيافة الهزيلة وعن «عوز العلاقات الاجتماعية وقسوة الطباع التي تذكر بوادي الدواسر الذي تبدأ حدوده الأولى في حقيقة الأمر بعد خمسة عشر إلى عشرين ميلاً من هنا في اتجاه الجنوب» بقوا في الخرفة حتى بعد الظهر، ثم قفلوا عائدين سالكين الطريق نفسه الذي أتوا عبره. ولكنه لم يصف رحلة العودة.

وقبل أن أشرع في نقاش المشاكل التي يثيرها هذا المختصر الشامل لرحلة بلجريف نحو الجنوب يكون من الملائم أن نفكر في بعض المعلومات التي تجمعت أثناءها، وهي باعتراف الكاتب بلغته عبر وسيط: من بدع وآخرين من المقيمين في الصفرا وماشالله والخرفة. وبعد ذلك يمكن أن نهمل هذه المعلومات. «إذ أن الطريق المعروف جداً والذي يقود عبر وادي حنيفة لشمال الأفلاج يمرّ عبر شقراء، ثم جنوب طويق حتى مكة، ولقد سمعت مراراً عن مساراته وأماكن الوقوف به بتفاصيل من الكثيرين ممن سافروا عبره في أي من الاتجاهين. وروايات هؤلاء تتطابق تماماً مع ما يبدو في الخارطة الألمانية التي نُشرت في جوته في عام ١٨٣٥م بعد أبحاث وتقصي نيور واهرنبرج وروبل؛ هذا هو الطريق العام لوسط الجزيرة العربية». ولسوء الحظ لم أتمكن من الحصول على نسخة من الخارطة المشار إليها، ولكننا يمكننا أن نفترض أن معالمها الأساسية قد ضُمَّت في تلك الخارطة التي نشرت^(١) مع كتب بلجريف، تلك الخارطة توضح طريق قوافل يجري من شمال غرب شقراء، ثم عن طريق طويق بطول مجرى وادي حنيفة إلى الرياض، ومن هناك يتجه نحو الجنوب الغربي عبر الخرفة ووادي الدواسر إلى بيشة، وأخيراً

(١) رسمها ج. سولزر، برلين وطُبعت بواسطة ف. بارث ١٨٦٥م. (المؤلف).

يتحول نحو الشمال الغربي للطائف ومكة. وهذا يعني أن الطريق العام لوسط الجزيرة العربية، والذي يبدأ أحد طرفيه في مكة والطرف الآخر في مكان ما إلى الشمال الغربي من شقراء، يتتبع عن قصد ثلاثة أضلاع لمستطيل بين مكة وشقراء بدلاً من اتباع خطّ مباشر بين هاتين النقطتين. والآن نحن نعلم علم اليقين أن مكة مرتبطة بالقصيم وبشقراء وبالرياض، هذا إن لم نذكر ارتباطها بالأفلاج ووادي الدواسر بطرق مباشرة يقطع بعضها طويق، بينما لا تجري أيّ من هذه الطرق جنوب طويق. ولا يوجد طريق عام كالذي تمّ وصفه في هذه القطعة المنقولة عن الكتاب. إن كان بلجريف قد ذهب حقيقة إلى الخرفة فلا بد أنه كان سيكون في وضع يمكنه من معرفة هذه الحقيقة، ولكن تقريره يوضح أنه فشل في رؤية حاجز طويق الضخم الذي كان يقع بينه وبين الغرب مُحَوِّلاً اتجاهه طوال الوقت نحو الجنوب. وبسبب الفشل نفسه في رؤية حاجز طويق الذي صار ينحدر فوق سطح الإقليم نحو الجنوب الغربي بدلاً عن الانحدار نحو الشرق والجنوب الشرقي كما هو الحال في حقيقة الأمر.

كان وصفه لوادي الدواسر والموقع الذي حدّده له بالنسبة للخرفة بعيداً عن الحقيقة. لا يمكن لأحد يسكن في الخرفة أو على علم بالإقليم الواقع خلفها أن يكون هو الذي قال له إنّ الحدود الأولى للوادي قد يصلُ إليها الإنسان من الخرفة في رحلة يوم واحد في المتوسط، أو كما عبّر هو: على بعد خمسة عشر أو عشرين ميلاً. هذا التقدير للمسافة التي يمكن أن تُقطع في اليوم الواحد له أثر على جزء آخر من هذا النقاش. ولكن الرجل لا يحوّجنا لكثير عناء في هذا الجانب إذ يذكره في أكثر من مناسبة في الصفحات نفسها التي يصف فيها رحلته للجنوب. «طول الوادي» هكذا يصرّح «يُقال إنه مسيرة اليوم في المتوسط هي عشرون ميلاً، للقوافل

== قلب الجزيرة العربية ==

بالطبع، وهو تقدير مناسب. ومرة ثانية يقول: «تبعد قلعة بيشة مسيرة يومين - أو أربعين ميلاً- من وادي الدواسر» وهو بهذا لا يجعلنا نشك في أن تقديره لرحلة يوم واحد بالإبل، مع السير سيراً معقولاً، هو عشرون ميلاً^(١).

وصف بلجريف السِّلِيل كالأتي: «إقليم بائس فقير مليء بالتلال الرملية وبه قليل من الماء». لقد سمع أنه يقع على مسيرة ثلاثة أيام جنوب وادي الدواسر، وهذه نقطة أخرى؛ لم يكن تقصّي الحقيقة حولها في الأفلاج لِيُضَلِّلَهُ. ثم إنه يرى أن السليل هي أول واحة هامة في طريق يسلكه الناس مراراً وتكراراً بين مستوطنات الأفلاج ووادي الدواسر. ويضع نجران على مسيرة يومين فقط من السِّلِيل. ولكن في النهاية هذه أخطاء مبنية على معلومات سماعية، ولذلك يمكن التماس العذر له فيها لحدّ ما. كما أنّها تخصّ إقليماً سأجد الفرصة لوصفه تفصيلاً في الفصل التالي.

أتحوّل الآن للنظر في وصف بلجريف لزيارته للخربة في إقليم الأفلاج. سأركّز جدلي حول مسألة المسافة بين الخربة والرياض، وإمكانية أو احتمال

(١) استناداً على هذا التقدير سأقوم بتسجيل نصّ وصف به سيره من حائل لبريدة (راجع الجزء الأول، ص ٢٣٥)، يقول «كنا نسير كل يوم اثنتا عشرة إلى أربع عشرة ساعة بسرعة تبلغ ٥ أميال في الساعة، أو أكثر من ذلك بقليل، وهي السرعة العادية لإبل الركوب» حدث هذا لقافلة تضم سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين شخصاً منهم التجار والنساء والأطفال، وبرفقة عدد قليل من الإبل التي تحمل المتاع الثقيل، وتمشي معهم جنباً إلى جنب. واستغرقت الرحلة بين حائل وبريدة تسعة أيام. وإذا قلنا إن هذه الرحلة استغرقت ثمانية أيام فقط وليس تسعة، وكان السير فيها لمدة عشر ساعات فقط في اليوم، وبسرعة خمسة أميال في الساعة، لا أكثر تصبح المسافة بين البلدين ٤٠٠ ميل. ولكن بسرعة عشرين ميلاً - في المتوسط - في اليوم تكون المسافة ١٦٠ إلى ١٨٠ ميلاً. وفي حقيقة الأمر فإن المسافة المباشرة هي ١٥٠ ميلاً. (المؤلف).

قطعها، في ظل الظروف التي أشار إليها، في يومين، أو فلنقل في ست عشرة ساعة^(١).

كان تقديره للسير المعقول للقوافل في اليوم الواحد هو عشرون ميلاً كما رأينا من قبل. وهو لم يوضح سرعته في هذه المناسبة، ولكن الإشارة في خارطته تجعل المسافة كلها حوالي ٦٠ ميلاً وهو تقديرٌ اقتنعت أنا بأنه تبناه بمحض إرادته إذ أنه أبان صراحةً في تقديمه الأفلاج لقرائه قائلاً: «ذلك الإقليم الذي توضح عدد من الخرائط - لا أدري لماذا - يبعد مئتي أو ثلاث مئة ميل عن العارض، وهو في حقيقة الأمر مجاور لها، ويفصلها عن وادي الدواسر» ويسعى الرجل في خارطته لتوضيح الأقاليم الثلاثة وموقع كل منها بالنسبة للأخريات، وهو أمرٌ يدونه بوضوح في كتابه. ولا أرى سبباً لافتراض أن ذلك لم يكن يُقصد به تحديد وجهة نظر الكاتب حول المسافة أيضاً. ومهما يكن من أمر فلقد بلغ أعتاب الإقليم في منتصف الرحلة أي على بعد ثلاثين ميلاً أو نحوها، أي مسيرة يوم واحد من الرياض.

عندما شرعت أنا في رحلتي مقسماً إياها إلى مراحل، قاصداً الغاية نفسها، وجدت صعوبة في التوفيق بين ما رواه سلفي والوقت الطويل الذي استغرقته رحلتي قبل بلوغي أعتاب الأفلاج، أو فيما يختص بالمسافة التي قطعتها وهي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من الرياض، وهي المسافة التي تفصل بين الرياض

(١) كان الموسم هو بداية نوفمبر (تشرين الثاني). نحن نعلم أن المجموعة توقفت في وقت الظهيرة وأثناء الليل، هذا إن لم نذكر الوقفات الصغيرة للإفطار. لهذا يبدو سير ثماني ساعات أمراً معقولاً في غياب أي دلالات على العجلة. (المؤلف).

والخرقة، وفقاً لخارطة ريتز^(١) للجزيرة العربية، ولكنني تعزيت بالقصة التي رواها أحد رفاقي عن رجل أدّى صلاة الجمعة^(٢) في الرياض وبدأ رحلته نحو الجنوب فبلغ ليلى ليهجع مع أهله فيها في ليل يوم السبت. لم تساورني الشكوك حول رواية بلجريف حتى بلغت حدود سهل الأفلاج ووجدت أن الخرقة لم تكن تبعد سوى اثني عشر ميلاً أو نحوها عن أول مستوطناتها. وزادت شكوكي عندما فشل رفاقي في التعرف على قرى الصفرا وماشالله.

عندما شرعت في رسم خارطة للطريق الذي اتبعته في الرحلة، توصلتُ في أول مقال كتبتَه عن الموضوع لنتيجة وهي أنه لا يُمكن أن يكون هناك طريق بين الرياض والخرقة يقلّ عن ١٤٠ ميلاً^(٣)، وبدأتُ أشكُّ في أن يكون بلجريف قد تمكن من طيِّ هذه المسافة في يومين. كانت الحالة التي ذكرتها آنفاً ضد منطقي ولكن يبدو لي بعيداً عن التصديق أن يكون بلجريف قد انطلق بهذه السرعة العظيمة دون إشارة أو تعليق عنها. ولم أعلم إلا لاحقاً عن تصوّر بلجريف المتحفظ جداً عن المسافة. بيد أنني في مرحلة لاحقة، عندما كنتُ أعدُّ ورقتي للجمعية الجغرافية الملكية من خضمّ المدونات التي لم أكن قد فحصتها بعد ومن الخرائط التقريبية للطرق التي سلكتها، وجدتُ لزماً عليّ أن كان لي أن أشنّ هجوماً استهدف فيه صدق وأمانة سلفي أن أراجع مرئياتي السابقة بمزيد من الحرص. واقتنعت نفسي بأن المسافة بين الرياض والخرقة لا تقل بأيّ حال عن

(١) نشرت في عام ١٨٥٢م، وأوردها هوجارت في كتابه ص ١٧٠. (المؤلف).

(٢) لا يمكن أن يكون قد بدأ رحلته -والحال هذه- من قبل الساعة الواحدة بعد الظهر. وبين هذه الساعة

ومتتصف ليل السبت: ٣٥ ساعة، ولكنها ساعات من السير السريع المتّصل. (المؤلف).

(٣) التقرير الرسمي المشار إليه أعلاه. (المؤلف).

١١٠^(١) أميال، بينما حافظت على اقتناعي العام بأنه لم يكن باستطاعته أن يقطع - وبالفعل لم يقطع- تلك المسافة في يومين. ولقد اعتمدت في هذا الرأي على عوامل أخرى لا تقل أهمية عن عامل المسافة. لقد غاليتُ دون شك في تمسّكي بقضية مبنية فقط على عنصر المسافة، ولكن السيد هوجارث تطرّف في الاتجاه الآخر عندما بدأ نقاشه قائلاً^(٢): «لنأخذ حجة السيد فيليبي الرئيسة. بدايةً هو يقول إنه من المستحيل على بلجريف أن يقطع مسافة ١١٠ أميال على ظهور الإبل في يومين، أي ٥٥ ميلاً في اليوم، أو على الأقل أنه كان من غير المحتمل أن يحقق ذلك، بيد أن قطع مسافة ٧٠ إلى ٨٠ ميلاً في اليوم هي سرعة عادية جداً على إبلٍ يمتطيها من لهم سبب للعجلة؛ مثلاً لمن يحملون البريد، أو لرسلي يحملون أشياء مهمة.

نعم، لم يصرّح بلجريف أنه كان على عجلة من أمره بصفة خاصة، لكنّه كان يسير مع مرافق واحد. لقد قام بالرحلة لسبب معيّن وأظنّ أننا لا بد أن نفتنع أنه ركب بالفعل بهذه السرعة، وأنه قطع ٥٥ ميلاً في اليوم. إنه يقول إنه كان في نهاية اليوم الأول على مشارف الأفلاج، وهي مسافة ٥٠-٦٠ ميلاً من الرياض، وفي اليوم التالي، وفي ساعة متأخرة من الليل وصل إلى جوار الخرفة. لقد أخبرني كولونيل لورنس قبل ثلاثة أيام فقط أنّه في خلال الخريف السابق ركب رجلٌ من الزلفي فبلغ ينبع^(٣) ثم عاد إلى الزلفي بعرض نجد بسرعة بلغت ١٣٠ ميلاً في اليوم. لقد استخدم ثلاثة من الإبل؛ ركب إحداها في الثلث الأول من

(١) J.R.G.S ، مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٧٦ (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية). (المؤلف).

(٢) J.R.G.S مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٨٨. (المؤلف).

(٣) بالتقريب ٥٠٠ ميل في كل اتجاه. (المؤلف).

الرحلة ثم غيرها ليصل بها إلى المطية الثالثة ويستبدلها بها للجزء الثالث. وفي رحلة العودة امتطى المطايا نفسها من المواقع نفسها التي تركها فيها. هذا يوضح أن تحملاً مثل هذا في مقدرة الإنسان. كان بلجريف قد ركب كثيراً في دروب الجزيرة العربية، ولعله صار ماهراً في ركوب الإبل.

إنني أجد بعض الصعوبة في أن أقبل رواية السيد هوجارث عن السرعة الفائقة والتحمل كأمر لا يتطرق إليه الشك رغم أنه يروي القصة على ذمة الكولونيل لورنس، إذ أن المصدر النهائي في أحسن الأحوال سيكون رواية أعرابي، وفي أمور كهذه فإن للعربي نزوعاً لاستخدام خيال جامح، ولا ينبغي لنا أن نأخذ ما يرويهِ كما هو. ووفقاً لما أعلمه لم يكن هناك شاهد يعتمد عليه في الزلفي في خريف ١٩١٨م ليسجل بداية ونهاية ذلك السباق غيري أنا، ولم أسمع عنها شيئاً رغم أنني كنت في الزلفي نفسها من يوم ٥ إلى ٧ أكتوبر (تشرين الأول)، وفي جوارها بالقصيم دون انقطاع منذ ٢٣ أغسطس (آب) وحتى أكتوبر (تشرين الأول) في خريف ذات العام.

ومهما يكن الأمر فإن هذا لا يلقي ظلالاً من الشك على صدق اقتناع السيد هوجارث بأن هناك سرعات أعظم لركوب الإبل عن تلك التي أثرتها فيما يختص ببلجريف فهي ليست مستحيلة وليست غير معتادة ولكنها في الوقت ذاته لا تغير اقتناعي بأن بلجريف لم يسافر ولم يدع السفر بهذه السرعة ١١٠ أميال في يومين -في مناسبة سفره المزعوم للأفلاج. وبعد أن قرأت ورقتي أمام الجمعية الجغرافية أخضع اختصاصيو الجمعية الجغرافية الملكية كل المواد التي جمعتها أثناء إقامتي في الجزيرة العربية للفحص والتمحيص وضبطوها وفقاً للمواقع التي حددتها أنا فلكياً، وكانت النتيجة أن الخرفة تراجعت لمسافة ١٧٠ ميلاً بخط مباشر من

الرياض، وهي بهذا توافق لدرجة كبيرة الموقع^(١) الذي ظهر لها في خارطة ريتير القديمة، وفي الوقت نفسه زادت من صعوبة تصديق ادعاء بلجريف بزيارتها. أما بالنسبة للسؤال عن المسافة المعقولة في ظروف عادية لمسيرة يوم واحد بالإبل، فلقد سجّلت من قبل حالات كثيرة لسرعات خارجة عن العادة، أو أنها لم تسجل ولكنها ما زالت في أذهان من مرّت بهم ظروف جعلتهم يعلمون شيئاً عنها، لذا لا يسعني إلا أن أسجل وجهة نظري الشخصية، وهي أنه إذا استبعدنا السير أثناء الليل، وكان السير نهاراً فقط، التزاماً بعادة العرب الذين يُعطون اعتباراً أكبر لراحة المطايا وليس لراحتهم، إلا إذا تعرضوا لضغوط كبيرة، أقول في ظل هذه الظروف المعتادة تكون سرعة ثلاثين ميلاً^(٢) في اليوم سرعة جدّ معقولة، وأي شيء أكثر من ذلك فهو بلا شك إنجاز رائع، بيد أن الرحلة تكون -من ناحية أخرى- غير مريحة.

والتهمة الثانية التي أوجهها لبلجريف تنتج عن ذكره الخاص لقريتين هما الصفرا وماشالله بمعزل عن وصفه للطريق الذي سلكه. وفي رحلتي للأفلاج اتبعت أنا طريقاً دائرياً بعض الشيء سالكاً طريق وادي حنيفة وإقليم الخرج حتى الطرف الأعلى من وادي العقيمي، ومن ثمّ عبر مرتفعات رجد حتى تخوم سهل الأفلاج. بينما وجدت نفسي في طريق العودة في الغيل التي لا تبعد كثيراً عن الخرفة وليلى، ومن ثمّ سرتُ فوق المنحدرات الخارجية لطويق -موازيّاً على مسافة ليست ببعيدة- لطريق الذهاب مرة ثانية، وعند نهاية سلسلة صخور الأحمر في

(١) إلا في مسألة الاتجاه، إذ أنّ الخرفة تقع حقيقة جنوب الرياض وليس في الجنوب الغربي كما ظهر في الخارطة. (المؤلف).

(٢) هذا إن كان يحمل معه كمية معقولة من الأمتعة الخفيفة وأدوات المطبخ. (المؤلف).

الطرف الأعلى من وادي العقيمي. وبعدها سرت في خط مباشر بقدر المستطاع بالقرب من الحافة الشرقية لإقليم الحوطة لنتقي مرة ثانية بوادي حنيفة في الحائر.

والآن لا يمكن أن يُنكر أحد أن المسافر من الرياض للأفلاج لابد أن يتبع أحد هذين الطريقين أو طريقاً وسطاً بينهما^(١)، حيث لا تحفّ بالطريق عوائق تمنع تقدّم من يسلكونه، وليس من المعقول لأيّ مسافر يتخذ أيّاً من هذه الطرق أن يضمّر بين مستوطنات الخرج الخصيبة من جانب وواحات الحوطة العظيمة من جانب آخر دون أن يلحظ أيّاً منها. لم يكتفِ بالجريف من قرى الواحات إلّا بـ: الصفرا وماشالله، والأخيرة ضمن حدود الأفلاج، ولا بد لنا أن نصدّق أنها قد زالت عن وجه الأرض من خلال نصف قرن من الزمان دون أن تخلّف أثراً أو شائعة عن وجودها السابق. ولم يسمع حداة ركبى - وبعضهم على معرفة لصيقة بكل الأصقاع - عن هذه القرى.

والنتيجة الوحيدة التي يمكن الوصول إليها هي أن تلك القرى ليست غير موجودة في الوقت الراهن فحسب، ولكنها لم تكن موجودة على الإطلاق. ولا شك أن اختلاق قرى وهمية غير موجودة إلّا في خيال صاحبها هو جارت خطير لمن يدّعي أنه مكتشف، ولكن السيد هو جارت الذي كان يشير لوجهة نظري حول هذا الأمر قلّل من شأن خطورتها قائلاً^(٢): «إن السيد فيلبي يلقي أهمية عظيمة

(١) بما أنّ بلجريف بيّن أنّه عبر وادي حنيفة، يصبح من غير الضروري أن نذكر ما كان يمكن أن يحدث لو أنه سلك طريقاً إلى الشرق من الطريق الذي سلكته في رحلة الذهاب. ومن ناحية أخرى إذا كان قد سلك طريقاً إلى الغرب من طريقي الذي سلكته في العودة، فإنه كان سيجد نفسه وقد اعترضته سلسلة صخور مجمع الهائلة، ولاحظ الالتفاف حولها عن طريق الحوطة أو عن طريق الحريق. وهو شيء أقرّ بأنه لم يفعل. (المؤلف).

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (J.R.G.S) مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٨٨-١٨٩. (المؤلف).

على الأشياء البسيطة التي لاحظها بلجريف وعن عدم الدقة في بياناته، ولقد سبق أن أعطيتكم توضيحاً جزئياً حول ذلك الأمر، إنه لم يكن يتذكّر ما رآه بجانب الطريق عندما بدأ يكتب عن الرحلة بعد مضي عام أو يزيد بعد عودته لأوروبا. إنني لأتساءل إن كان السيد فيلبي قد حاول أن يجد طريقاً سلكه بلجريف دون أن يكون هناك من يشك في أنه قد سلكه فعلاً. ولقد كان عليّ أن أمرّ بتجربة كهذه، لقد كان ضرورياً أثناء الحرب أن أكتب تقريراً عن طريق معين بين بريدة والزلفي. حملت ضمن كتابات أخرى ما كتبه بلجريف عن ذلك الطريق لكنني لم أعرف له بداية أو نهاية، وكان من السهل عليّ أن أقول أنه لم يزُر بريدة على الإطلاق قياساً على القول من أنه لم يزُر الأفلاج. إن بالجرريف لا يدرك تماماً كيفية كتابة التقارير، وكانت ذاكرته معيبة للحدّ البعيد. إنه يُعطي ما يبدو في الظاهر تفصيلاً دقيقاً عن الطريق. وفي حقيقة الأمر وباستثناء أنه قد انتقل من نقطة لأخرى، كل ما يأتي بين ذلك هو إلى حدّ كبير من وحي الخيال». ولا أرى دفاعاً عن متهم أكثر ضرراً به من شهادة هوجارث عن بلجريف.

عندما هاجمت بلجريف فيما يتصل بهذه القرى الوهمية، أبرزت ما بدا لي تعليلاً مقبولاً لانحرافه عن طريق الفضيلة في هذه الحالة. بيد أنني كنت أفترض أنه لن يُثار جدلٌ حول صحّة المعالم الأساسية لمغامراته وسرده. لذا كنت مهتماً بأن أوضح أنه عندما يتعلق الأمر بالتفاصيل فإنّ شهادته قد لا تقبل في أغلب الأحوال دون بعض الاعتراضات، أو بعبارة أخرى أنه كان قادراً على تزيين قصصه بكثير من المغامرات الوهمية وبقدر وافر من التفاصيل المختلقة المعتمدة على الخيال فحسب. لكنني بعد قراءة ثانية متأنية لرحلاته في ضوء تجربتي الشخصية بدأت أتساءل عن مدى صدق بلجريف حتى في أساسيات ادعاءاته نفسها وليس

التفاصيل، ولم تتمكن تعليقات السيد هوجارث أن تزيل شكوكي. أما عن تحدّي السيد هوجارث لي لأطبّق طرق النقد نفسها لوصف بلجريف لطرق أخرى «لايشكك» أحدٌ في أنه قد سلكها، فإنّ لديّ ما سأقوله بعد برهة وجيزة.

لذا؛ فإنني أفترض في الوقت الراهن أنّ قدرّاً كبيراً من الدلائل كانت ضد مبدأ قبول ادعائه بزيارة الأفلاج، ولكن بنفس القدر لم يكن هناك من الأسباب ما يشكك في أنّه أقام بالرياض. ولقد تخيلت صورته هناك في الرياض جالساً في غرفة القهوة الخاصة به مع الرجل ذي الاسم غير الملائم؛ بدّع، التاجر النجراني الذي لم يكن بلجريف ليجد في العاصمة السعودية خيراً منه ليخبره بهذا الاسم- إلى الرياض في بعض شأنه بوصفه تاجراً، ولا بدّ أنّه قد أتى مسافراً عن طريق وادي الدواسر والأفلاج. وإن افترضنا أنّه توقف بالحرفة فمن الطبيعي أنّه سافر منها سالكاً أقصر الطرق المباشرة، وبما أنّه عربي فمن المؤكد أنّه قد سار مواصلاً الليل والنهار دون أن يتوقف إلّا لتناول وجبة سريعة أو للقيولة أثناء ساعات النهار الفائضة. وإن قال إنّ الرحلة استغرقت يومين فلعله قال ليلتين.

وهكذا يمكننا أن نفترض أنّه قد بدأ رحلته في وقت الأصيل في اليوم الأوّل، ثم سافر طوال الليل، وتوقف قليلاً في الصباح لتناول وجبة خفيفة في منطقة انصلح وواصل الرحلة، ولعله سلك طريقي نفسه في رحلة العودة ماراً بالقرب من منبع قناة الفرع، ثم توقف للقيولة في منحدرات طويق العارية في (الصفراء) أو كما يمكن أن نسميها القفر. وليلة أخرى سريعة السير تكون قد أوصلته إلى الرياض عند الظهر في اليوم الثالث. هذا الأداء عادي للعربي المسافر وحيداً لهدف معيّن، وهذه السرعة مختلفة جداً عن السرعة التي نسبت زوراً لبلجريف إن صدّقناه. ربما أنّ بدع له من قوة الملاحظة أكثر مما لدى بلجريف، فلقد رأى قرى

كثيرة ووحدات في الأفلاج، ومن المحتمل في الخرج أيضاً أو وادي الفرع ولا بد أنّ بدع هذا قد وصف هذه القرى أو تحدّث عنها بطريقة العرب المشوشة، ولكنّ بلجريف هو الذي زلّ بأن وزعها على المنطقة ليعطي مساحة من مصداقية لقصته. ولكنه لم يتذكر عندما «جاء ليكتب عن تلك الرحلة سوى هذين الاسمين؛ كتب أحدهما بطريقة ملتوية وهو من الأسماء التي ذكرها محدّثه عن الوقفات في الصحراء التي يطلق عليها أيضاً الصفرا أو القفر، وما كان من بلجريف إلا أن عدها قرية وألبسها حلّة من النخيل والسكان، والاسم الثاني هي قرية نسلة التي تحوّرت إلى ماشالله، ووضعها خطأ في داخل حدود الأفلاج بصفتها واحة يانعة.

كان هذا التفسير قد بدا لي حينها معقولاً ليوضح سقطته. ولكن أيّ رأي يُسلّم بأن ادعاءه بالإقامة في الرياض كان ادعاءً زائفاً، هو رأي غير مقبول ولقد أوضحت قبل قليل عن الإشارة لمفتاح اللغز ويبدو أنه يؤكد دون مدعاة للشك أن بلجريف لم يستمد معلوماته عن قرية ماشالله من رواية النجراني. ولكن من أين أتى الاسم؟ لا أستطيع أن أجزم.

ولكن بما أنه كان مسؤولاً عن الطريقة الإملائية التي كُتب بها الاسم فإنه من المثير أن نلاحظ أنه لم يكن أول من وصفها على خارطة للجزيرة العربية، إذ أن خارطة ريتز التي أشرت إليها سابقاً توضّح في موقع بنفس البعد والاتجاه من الخرفة^(١) كذلك الذي وضع فيه بلجريف ماشالله، مستوطنة تُسمّى مشيلة والتي تقع دون شك في موقع واحة أسيلة، المستوطنة الأولى لإقليم الأفلاج للقادم من الشمال، والتي يبدو منها نخيل الخرفة، هذا إن لم نذكر عدداً من الواحات الأخرى

(١) إن توزيع الأسماء على خارطة ريتز كان بالطبع اصطلاحياً محضاً. كانت أسماء القرى ومواقع التوقف مستمدة من مصادر عن طريق وسيط. (المؤلف).

القريبة التي تُرى بيسر عبر السهل. على أيّ حال فإنّ الافتراض الغالب أنّ بلجريف قد التقط الاسم من خارطه ريتز، وإن لم يكن كذلك، فقد أخذه من بدع، أو من ملاحظاته الخاصة. ولا يجدي الكثير من الحديث عن الصفرا رغم أنّ خارطة ريتز تأتي مرّة ثانية لإنقاذه دون أن يكون هناك مسوّغ كافٍ بأنّ تبين موقعاً بذلك الاسم في المرحلة الأولى^(١) بعد الخروج من الرياض في اتجاه الجنوب الغربي.

ويكفي هذا عن نقطتي الجدل. كما أنني لا أكاد أصدق أنّ أحداً -حتى بلجريف- يمكن أن يصف الطريق الذي يمرّ عبر السهل المنبسط للأفلاج من أسيلة إلى الخرفة، أن يصفه بالطريق الصخري الغائر لبعض العمق في المجرى الحجري، أو ألا يلاحظ الواحات الغنية مثل ليلى والسيح والأخريات التي تنتشر في السهل. وفوق هذا، ففي الوقت الذي كتب عنه بلجريف، كانت المبرز في واحة ليلى هي مقر حاكم الإقليم وليس الخرفة.

ولكنّ أعظم الجرائم التي ارتكبتها بلجريف في حق الجغرافيا كانت خطيئة إغفال لا يمكن أن تغفر لرجل يتخذ صفة المكتشف. إنه يبدأ وصف رحلاته هكذا^(٢): «دعنا نحاول على وجه حاسم أن نحصل على معلومات صحيحة وشاملة بقدر مناسب عن شبه الجزيرة العربية. إننا نعرف كثيراً عن شواطئها، ولقد تمّ اكتشاف الكثير من أقاليمها البحرية، إن لم يكن بصفة دقيقة فعلى الأقل بطريقة مقبولة. ولم تعد اليمن والحجاز ومكة والمدينة أسراراً مجهولة لنا، كما أننا لا نهمل أقاليم حضرموت وعمان. ولكن الأعماق الداخلية للإقليم المتسع مجهولة

(١) هذا الجزء والأجزاء الباقية من الطريق الذي نتحدث عنه تم توزيعها اصطلاحياً، وكثير من الأسماء يستحيل التعرف عليها. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P ، الجزء الأول ص ١-٢. (المؤلف).

لنا. ماذا نعرف عن سهولها وجبالها؟ عن قبائلها ومدنها؟ عن حكوماتها ومؤسساتها؟ عن سكانها وطرق حياتهم وعاداتهم وعن حالاتهم الاجتماعية؟ هل تقدّموا في مراقبي المدنية أم ما زالوا غارقين في غيابة جبّ البربرية؟ ماذا نعرف حقيقة عن هذه الأشياء سوى تقارير ناقصة تعوزها الدقّة؟ لقد حان الأوان للملء هذا الفراغ في خارطة آسيا. وسيكون هذا مسعاي مهما عرّضنا الأمر للمخاطر، وإمّا أن تكون الأرض المترامية الأطراف أمامنا مقبرتنا، أو أننا سنزرعها بكامل عرضها لنعرف ما تحويه، من الساحل إلى الساحل».

إنّه ليصعب تصديق أنّ من بدأ مشروعه بهذا القدر العالي من الطموح، ومن شملت مقدرته على الملاحظة والتمعّن في تفاصيل امتدت لأمر مثل الفرق في أطوال القمصان التي يلبسها الرجال في الأقاليم المختلفة، من الصعب أن نتخيّل أنه قد زار إقليم الأفلاج، وهو دون استثناء أكثر أقاليم وسط الجزيرة العربية عظمت، دون أن يلحظ المعلم الذي يميّزها عن البقية، والتي استمدّت اسمها منه، أي من نظام قنوات الريّ العظيمة التي تستمدّ مياهها من مستودعات مائية عميقة إحداها في حجم بحيرة كانت شهرتها قد بلغت أوروبا قبل فترة طويلة من رحلات بلجريف، وكانت قد قُدّمت - رغم صورة المبالغة العظيمة التي قُدّمت بها - في موقع صحيح إلى حدّ كبير بالنسبة لواحة الخرفة في خارطة ريتز عن الجزيرة العربية. بالطبع كان وضعها على تلك الخارطة نتيجة لتيقّن مبني على معلومات أتت عن طريق وسيط. ولكن عجز بلجريف عن تأكيد وجودها دعم شكوك الجغرافيين الأوروبيين في وجودها، وكانت النتيجة أنّ البحيرة اختفت عن الخرائط التي لم تُعدّها ثانية إلا بعد نصف قرنٍ أو يزيد.

لقد قدّمت هنا الأرضية التي استندت عليها في اقتناعي بضرورة رفض ادعاء بلجريف بالسفر من الرياض للخرفة على أساس أنها محاولة طائشة للخداع. وباستثناء بيانه المجرّد عن الرحلة فإنّ وصفه لها وللبلاد التي تقع فيها لا يحتوي على أي دليل على صحّة زعمه، كما أن بها الكثير مما يدلّ على نقيض ذلك. لا أستطيع أن أصدّق أنّ أيّاً من الناس الذين مرّوا عبر ذلك الطريق يمكنه أن ينجح في أن يمحو محوّاً تامّاً عن ذاكرته كل الانطباعات التي تراحمت أثناء تلك الأيام القلائل. ولكن يمكنني أن ألخص اقتناعي في النقاط التالية:

- ١- تبعد الخرفة ١٧٠ ميلاً - في خط مباشر - عن الرياض، ولكنّ بلجريف يدّعي أن رحلته بين تلك النقطتين استغرقت يومين من الركوب العادي.
- ٢- لم يرَ في طريقه أيّاً من المعالم التي كانت موجودة حينها - كما هي موجودة الآن - لكنّه عوّض عن ذلك العجز بأن ابتدع قريتين - لا توجدان في الواقع - من خياله الخاص، أو أنّه أخذ أسماءها من خارطة كانت في حيازته.
- ٣- لم يرَ الواحات الكثيرة الأخرى بالأفلاج، ولا البحيرة والمستودعات المائية الأخرى، ولا قنوات الريّ التي تشكّل معلماً بارزاً في الإقليم.
- ٤- كانت كل المعلومات التي أوردها - تقريباً بلا استثناء - عن وجود طريق مباشر أو غير مباشر في تلك المنطقة، يربط بين الرياض والخرفة ومنطقة الأفلاج ووادي الدواسر، والبلاد التي تقع خلفها كانت جميعاً منافية للحقيقة.

يمكن أن نقرّ بسهولة أنّ ما أضافه بلجريف لمعلومات أوربا عن الإقليم الواقع جنوب الرياض من خلال وضعه لرحلته نحو الجنوب لا قيمة لها. ولكن سيكون

هناك الكثيرون، مثل السيد هوجارث ممن سيترددون في بلوغ مرحلة إدانته كمخادع حتى يحصلوا على دلائل واثباتات للمواقع التي غطاها حقيقةً أثناء رحلاته وليس التي ادعى تغطيته لها. إذ أنهم سيتساءلون لماذا يلجأ من اشتهر برحلات مطوّلة في أجزاء أخرى من البلاد التي لا يشك أحدٌ في أنه قد قام بها حقيقةً، لماذا يعرض سمعته للوحد من أجل وصف عَرَضِي لجزء قليل وغير هام من رحلاته؟ هذا السؤال يثير مشكلة كبيرة كنت أفضل ألا أخوض فيها، ولكنني لا أرى مندوحةً عن فعل ذلك مخافة أن يقود امتناعي عن الإجابة لسؤال يبدو للوهلة الأولى منطقياً جداً لتداعي حجتي استناداً على القاعدة التي تنطبق مرتين على من لا يملك الدفاع عن نفسه. وحينها لابدّ من افتراض البراءة من الجرم حتى تثبت الجريمة. إذن لنبدأ بالافتراض الذي يقول: مهما كانت الحجة ضده دامغة فلا بدّ من قبول ادعاء بلجريف بزيارته للأفلاج إلا إذا أمكن إثبات أنه خدع قراءه فيما يختص بأجزاء أخرى من رحلاته أيضاً خلافاً لما هو مطروح الآن للبحث.

على الرغم من أن «كل ما يأتي في الوسط في غالبه من وحي الخيال» فإنّ هوجارث يبقى وفياً لبلجريف: «لقد ذهب من موقع لآخر»، ولم يهتز إيمانه به حتى إنه عجزَ «أن يعرف بداية أو نهاية» لوصف بلجريف للطريق بين بريدة والزلفي. إنه يقبل زيارته لتلك الأماكن بصفتها حقيقة واقعة، ويعلن بناءً على تجربته الذاتية «كان من السهل عليّ أن أقول إنه لم يزر بريدة على الإطلاق قياساً على القول بأنه لم يزر الأفلاج» إن هوجارث يناقش الأمر في كتابه بتفصيل أكبر^(١)، يقول: «إن أي تفسير لأخطاء بلجريف بخلاف أنه كثير المبالغة ويغفل

(١) D.G.H (كتاب هوجارث)، ص ٢٤٩. (المؤلف).

بعض الحقائق ويعطي بيانات خاطئة، أي تفسير يتجاوز هذا الإطار يكون بعيداً عن الحقيقة، وهو أمر لجأ إليه كبار منتقديه. لقد قام بلجريف بلا شك بالرحلة التي وصفها. ولم يعبر أي من الذين خلفوه في نجد عن شكوك في موثوقية زيارة بلجريف لها، وشهد أكثر من واحد أن مدوناته في بعض النقاط كانت من الدقة بحيث لا يستطيع سوى من شاهد بعينه أن يُسَطِّرها، وآخر هؤلاء هو البارون نولده الذي لا يذكر الافتراء إلا ليدحضه، واصفاً إياه.

ولقد أرسل لي مكتشف ذو خبرة عظيمة وهو س. م. داوتي خطاباً ضمَّنه رأيه في أنه لا يشك في الرجل، وأنه قد فهم بعض التعليق الذي قيل له في حائل على أنه قد يُعنى به بلجريف. واصفاً هذه النقطة قائلاً: «قال لي الخنيني في عنيزة شيئاً كهذا (كيف تستطيع أن تتجول في بلاد ليس بها قانون معلناً إنك إنجليزي ونصراني؟ لقد كان هناك رجل - لا أذكر اسمه - امتنع عن الإعلان عن نفسه هكذا عندما مرَّ بالبلاد).

وأخيراً يكتب ويلفرد بلنت: (لا أشك أن بلجريف قام بالرحلة التي سردها في كتابه. ويمكنني أن أشهد أن وصفه للحياة الاجتماعية في نجد صورة أمينة لما شاهدته أنا). وما ينبغي إضافته أن التوافق بين وصف بلجريف لمجتمع الواحات النجدية ووصف داوتي لها جد قريب، فَلْتَرُ لُ إذن كلُّ الشكوك».

أنقل هذه القطعة بكاملها لأظهر وزن الخبرات التي تقف أمامي. ولكن هناك بعض الملاحظات فيما قالوه لا بد من التعرُّص لها ابتداء. لا بد أن نذكر في البداية أن الحدود الشمالية لرحلاتي الشخصية كانت قصيباء بالقصيم، ولذلك لست مهتماً بسرد بلجريف بالجزء الخاص بتجواله في المناطق الواقعة شمال تلك النقطة. هذه

الحقيقة تجعل صفّ الشهود الذين أتى بهم السيد هوجارث أقلّ جلالاً ممّا كان يمكن أن يكون عليه، إذ من بينهم من لم يتخط حائلاً جنوباً وأحدهم بلنت، أمّا نولده الذي «كانت قدرته ورغبته في ملاحظة ما يرغب فيه الجغرافيون محدودة»^(١). فلقد تطابق سيره مع سير بلجريف في هذه الأنحاء فقط في الجزء الواقع بين قصيياء وبريدة، بينما لامس داوتي الخط الذي سلكه بلجريف فقط في بريدة.

وما تبقى دون تفسير هي الإشارة لبلجريف التي استوحاها داوتي من محادثة من التقى بهم في حائل وعنيزة. وإذا نظرنا للمحادثة التي أشير إليها أعلاه، لا يمكن أن يكون «الحنيني» هذا قد أشار لبلجريف الذي لم يزر عنيزة قط، ليس ذلك فحسب بل هو يعلن صراحة -دون مبالاة- أنه ورفيقه سافرا متخفين في صورة سورين نصرانيين^(٢). ولكن جوارماني الذي زار عنيزة في مارس (آذار) ١٨٦٤م وكان يتخذ صفة مسلم، ويبدو أنه تمتّع بتأييد زامل وآخرين من وجهاء المدينة. أمّا الإشارتان^(٣) الأخريان لمكتشفين سابقين فلقد كان اسم الأول عبدالله، بينما كان الاسم الذي اتخذه بلجريف لنفسه كما يقول لنا هو^(٤): سليم عبده -محمود-

(١) كتاب هوجارث D.G.H. ص ٢٥٥. (المؤلف).

(٢) راجع كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول، ص ٥٦٢ عندما لخص ملاحظاته حول مسألة التخفي قائلاً: «يمكن لمسيحيٍّ إنجليزي أن يعبر الجزيرة العربية ونجد نفسها دون أن يضطر لتغيير ديانتته أو شرف انتمائه لوطنه». وراجع أيضاً الجزء الأول ص ٢٦٦ حيث يقول: «أشارت الخطة إلى نفس ما اتبعناه، وهي بكل تأكيد خير تخطيط» وكذلك الجزء الأول ص ٢٦٧: «حدث مرةً، مرةً واحدةً فقط أن صار وصفنا كمسيحيين سبباً لاتهام ومصدراً لخطر حقيقي». راجع أيضاً الجزء الثاني ص ١١٩: «عبدالله: (أنتم عملاء مسيحيون). بلجريف: (مسيحيون، ليكن الأمر كذلك، ولكن عملاء... وكأننا لم نكن معروفين كأطباء مسلمين)». (المؤلف).

(٣) كتاب داوتي C.M.D. الجزء الأول ص ٥٩٨، وص ٦٠٤. (المؤلف).

(٤) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول ص ١٥٢. (المؤلف).

العيسى»، أمّا الآخر فقد يكون هو بلجريف أو قد لا يكون. وإن كانت الإشارة له فلقد كانت بعيدة عن الإطراء: «رجل صدوق والله» صاح ذلك الشيخ المسنُّ -وهو يشير بالطبع إلى داوتي-، ثم واصل حديثه: «هذا لا يشبه ذلك الذي أتى إلى هنا في السابق، رغم أنني لا أتذكر في أيّ عام يا محمد، لكنّ الأول كان يقول لنا كل شيء بصراحة ووضوح».

لهذا، وطالما أن المنطقة جنوب حائل هي التي في المحك، فإنّ وزن الشهادة التي جاءت لتعضّد ادعاء بلجريف الذي لا تسنده الأسانيد، هي ليست شهادةً داحضةً للتهم. ولكن قد يحتج البعض بأن بلجريف إذا كان قد زار في حقيقة الأمر الجوف وحائل ووصف المجتمعات في تلك المواقع بقدرٍ من الدقة رغم المبالغات والبيانات الكاذبة، فليس هناك سبب يجعلنا نعترض على تصريحاته بأنه قد ذهب إلى الجنوب من ذلك -للقصيم والرياض والأحساء والأفلاج- رغم أننا قد نجد أخطاءً خطيرة في وصفه لهذه الأماكن. ولكن هذه الحجة ليست خالية من النواقص. لقد كانت ظروف زيارة بلجريف للجزيرة العربية مُغلّفةً بالغموض، ووفقاً لما استطعت التحقق منه -بعيداً عن سرده- ليس هناك إثبات مباشر للموثوقية في أي جزء من أجزاء رحلته أو حتى حادث تحطّم السفينة المؤسف الذي سلبه مذكراته بعد فراغه من كتابتها وتركه معتمداً بالكامل على ذاكرته عندما شرع بعد عامين في الكتابة عن تجاربه. بيد أنّ السيد هوجارث أوضح النقاط الأساسية الخاصة بالغرض من رحلات بلجريف^(١). بعد محاولة نابليون غير الناجحة لمواصلة الاحتلال العسكري الفرنسي لسوريا نتيجة لمذبحة لبنان عام ١٨٦٠م،

(١) كتاب هوجارث D.G.H ص ٢٤٥. (المؤلف).

«كان يأمل أن يحقق احتلالاً فرنسياً فاعلاً على سوريا، أو أن يضمن تبعيتها لوكيله: النائب على مصر. كما كان مهتماً بخلافات مصر مع القوة العثمانية المتسلطة». «وبحلول عام ١٨٦٢م كان تأكيد إنشاء قناة السويس يزيد كثيراً اهتمامات فرنسا ومصر في الجزيرة العربية». واستدعى نابليون بلجريف لباريس صبيحة المذابح الدمشقية، وقدم بلجريف نفسه للإمبراطور بصفة سفير محتمل للمجتمعات العربية. وبعدها اعترف بلجريف نفسه شاكرًا «إنّ المواد اللازمة قد وقرها الإمبراطور الفرنسي الحالي» ولخص هوجارث الموقف في ثلاث جمل «هناك احتمال أنّ مهمتهم كانت دينية فقط وترتبط بمصالح الكلية اليسوعية في الشرق التي كانت مرتبطة في ذلك الوقت مع المصالح السياسية لفرنسا. والاحتمال الأكبر أنّ مهمته الأساسية كانت تحقيق بعض الخطط السياسية. ومن المهم أن نوضح أنّ هذا المكتشف لم يذهب للجزيرة العربية من أجل غايات علمية، لكنه ذهب لغرض آخر كان لا بدّ أن يجعله متحيزاً بقدر ما».

يتضح من كل هذا أنه ليس هناك من شك في أنّ بلجريف قد توغل في صحراء الجزيرة العربية، وأنّه قد فعل ذلك ليضمن تعاطف ذلك القطر مع الإمبراطور الفرنسي فيما يختص بخططه حول منطقة سوريا وقناة السويس. إنّ مهمة كهذه لا تستوجب بالطبع تجوالاً كثيراً يخترق فيه البلاد السعودية حتى الخليج العربي. بينما كانت الغاية الأساسية لرحلته - فيما صرح به - هو العاصمة السعودية والأرض التي تقع خلفها. ويؤيد هذا سجلّ حافل لمغامراته هناك مما يفيد في صرف انتباه الرأي العام عن حقيقة نشاطاته السياسية التي لا بدّ أن مركزها كان جبل شمر وعاصمتها. والمثير للاهتمام أن سلفه وليام وخليفته جوارماني، وكلاهما قدّم فيما يبدو إلى الجزيرة العربية لأسباب مشابهة؛ أولهما إنابة عن

النائب في مصر، والثاني إنابة عن الإمبراطور الفرنسي نفسه، لم يجد أيّ منهما ما يستدعي التجوال بعيداً إلى الجنوب من جبل شمّر، رغم أنّ كليهما تجوّلاً كثيراً جداً داخل الحدود التي رسماها لنشاطهما.

لن ينكر أحدٌ أنّ بلجريف كان بإمكانه أن يحقق أهدافه السياسيّة دون أن يضطر للخروج عن بلاد ابن رشيد. وتقود الدلائل التي تُستخلص من كتاباته للاقتناع بأنه كان شاهد عيان للمشاهد التي وصفها في شمال نجد، بينما تشير كتاباته عن رحلاته في وسط وجنوب نجد، وتقود القارئ للشك في أن تكون تسجيلاً لشاهد عيان. لذا يبدو أن هناك سبباً معقولاً للتشكيك على الأقل في موثوقية الوصف لذلك الجزء من رحلته الذي لم يكن لازماً لتحقيق أهدافه السياسية. سأقوم الآن بفحص تفصيلي - كلما دعا الحال - لما كتبه عن تجاربه في الأراضي السعودية منذ اللحظة التي دخلها عبر الواحة الحدودية الشمالية لقصبياء، وحتى الوقت الذي أبحر فيه من ساحل الأحساء. ولتسهيل الأمر سأتبع مراحل رحلته.

اقترب الرجل من حدود القصيم آتياً من الشمال، وافتتح حديثه بإعطاء القارئ محاضرة حول انحدار سطح شبه الجزيرة. «نجحت سنوات السفر الطويلة في النهاية في تمكين النظر. وبالطبع كل الحواس الأخرى من قياس الأطوال والمسافات والاتجاهات، وقياس التفاوت في الارتفاعات بدقة مقبولة، حتى في غياب الأدوات التي أنتجها العلم الحديث لتساعد وتصحح حساباتنا التقريبية. هذه الأدوات بلا شك عظيمة الأهمية كلما دعت الحاجة لدقة متناهية وتفاصيل لقياسات رياضية». ولكنه يطمئننا رغم ذلك أن بياناته «يمكن الاعتماد عليها دون خوف كأساس، كونها خطوة أولى لتأكيد صحة وإصلاح خارطة الجزيرة العربية».

ثم يقرر أنّ الخط الفاصل أو المرتفعات الرئيسة في الجزيرة العربية تمتدّ من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، بين خطوط طول ٤٥° و ٤٦° شرق جرينتش، وبين خطوط عرض ٢٩° و ٢٤° شمالاً، «وعلى جانبي هذا المرتفع، وأيضاً إلى الجنوب تنحدر أراضي الجزيرة العربية إلى أسفل نحو الخليج الفارسي، والبحر الأحمر والمحيط الهندي». إنني أورد هذه النصوص حتى أدلّل على نحو حاسم أنّ منظور بلجريف للجغرافيا الطبيعية لوسط الجزيرة العربية لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، وأنها غير مفهومة على الإطلاق، رغم أنها تأتي من رجل يدّعي أنه رأى جزءاً كبيراً من البلاد.

يقوم بوصف المكان بعد أن غادر فيد «بعيداً هناك في اتجاه الشرق كانت تبدو قليل من القمم الزرقاء الباهتة، إنها فروع جبل طويق في طرفه القصي». وبعد ذاك بقليل يصل إلى قصيباء، وهي واحة تمتدّ في خط طويل دقيق من النخيل في قاع أرضه مالحة، في أسفل صخرة راسية من الهضبة الجيرية. ويقول: «التل الصغير الذي بُنيت المنازل أعلى جانبه الشرقي هو في أجزاء أخرى مغطى بكثافة بأشجار الأثل والنخيل معطياً صورة رائعة».

خلال المرحلتين اللاحقتين لرحلته لم أتبع خطاه، إذ أن الطريق الذي سلكته أنا من بريدة حتى قصيباء جعل واحات القوارة والعيون بعيدتين عن مرمى البصر من خلف سلسلة التلال الواقعة ناحية الغرب. وجد بلجريف في واحة القوارة «عدداً لا يحصى من كلاب^(١) القرية هائلة الحجم.. لقد كانت بلا شك أكثر طيشاً وإزعاجاً من أيّ كلاب أخرى رماني الحظ العاثر في حماها». ثم سلّب قلة

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول ص ٢٣٨. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

مليئة بأجود أنواع تمر حائل، وهو الذي اتخذ القلة وسادة له زيادة في الحرص. وفور أن غادر هذه البقعة^(١)، «بلغنا فجأة انحداراً في سطح الأرض، ولاحت لنا الأطراف الجنوبية للقصيم. وترامى أمامنا حتى بلغ حد الأفق مترامي الأطراف تتناثر فيه المدائن والقرى والأبراج والحدائق. . . ويبلغ عرض هذا الإقليم المأهول بالسكان نحواً من ستين ميلاً، وطوله ضعف ذلك أو أكثر، ويقع الإقليم على مستوى يقل بمئتي قدم عن مستوى المرتفعات التي تنتهي هنا فجأة بصفتها حوائط لتترك الأراضي المنخفضة لتمتد دون عائق لمسافات بعيدة حتى سلسلة طويق المتعارضة التي تحدّها من الجنوب، وتفصلها عن الطريق العام الذي يربط نجداً بمكة. . . وعلى بعد يبلغ بعض الأميال رأينا بساتين النخيل الكثيفة للعيون، ولاح لنا نزر يسير من أبراجها وقلاعها التي تسمح الزراعة الكثيفة برؤيتها. وبعيداً هناك عن يميننا -أي إلى الغرب من رقعة كبيرة داكنة- لاحت مدينة الرس، أما بقية القرى والقرى الصغيرة فلقد تناثرت بكثافة في الأنحاء حولها». هل هذه حقيقة شهادة شاهد عيان لذلك المشهد المهجور قفار لا حدود لها ولا يكسر رتابتها شيء سوى واحة استيطانية واحدة؟ هل كان هذا هو كل ما استطاع رؤيته من هنا، أو من أي ناحية أخرى في الجوار - قرية العيون؟^(٢).

قد يكون السبب أن ذاكرته خائنته، لكنني بقيت نادماً طوال الوقت، لأنه نظراً لنشاطات ابن رشيد لم يكن من الممكن إقناع مرافقي لتتحول عن مسارنا حتى أرى العيون. لأنني كنت أود أن أختبر صدق بلجريف بطريقة لا تدع مجالاً للشك. وما رآه في العيون لم يكن تخيلاً وبيوتاً فحسب، «ولكن شمع بين أيدينا مباشرة

(١) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠. (المؤلف).

(٢) لم أر أنا نفسي هذه الواحة. (المؤلف).

== الجزء الثاني ==

معلم بارز رائع، يجذب الانتباه والنظر، لم يكن بوسعنا أن نحيد التفاتاً عنه، حتى بالنسبة لرفاقنا من العرب أيضاً».

لم يزر الموقع من الأوربيين بعد بلجريف فيما أظن سوى ليتشمان^(١) ولكنه لم يرَ ذلك المعلم البارز ولكن السكوت المحض ليس حجة مقنعة لعدم وجوده. لذا نرجئ في الوقت الراهن الحكم على هذه النقطة.

ويقول بلجريف عن هذا الأثر: «رأينا أمامنا عدداً من الحجارة الضخمة التي تشبه الحجارة الجلمودية العظيمة، وضعت منتصبَةً عموديَّةً على التربة، بينما وضعت بعض الكتل المشابهة بالعرض على قممتها. لقد كان ترتيبها في شكل قوس، ولعلها تشكّل جزءاً مما كان يوماً دائرة عظيمة، بينما وقعت حجارةٌ شبيهة كثيرة على الأرض غير بعيد. كان عدد الكتل التي ما زالت منتصبَةً - إن شحذنا الذاكرة - ثمانية أو تسعة، وكان اثنان منها على بعد عشرة أو اثني عشر قدماً عن بعضهما البعض، وتشكّلان أعمدة ضخمة لمدخل، وكانت تحمل حتى الآن عتبة الباب وهي كتلة طويلة وضعت بالعرض فوقهما. وكان القليل من هذه الأعمدة مجرداً من الكتل العرضية العلوية، أما البقية فقد أسندت فوقها تلك الأعمدة العرضية تحسباً لعاديات الزمن ولأفعال الإنسان التي تفوق في التدمير مقدرة العوامل الطبيعية. لقد بدت مجموعة من هذه الأعمدة العرضية مُترنةً بصورة بديعة حتى ظننت أنها قد تكون صخرة هزازة، وقدت مطيتي لأقف أسفلها تماماً، ثم أشرعت عصا القيادة بأن مددت ذراعي إلى أقصى درجاتها، واستطعت تقريباً أن

(١) لقد نما إلى علمي بعدها أن هوبر وهو مكتشف ذو قدرات خارقة وله ملكة في الملاحظة الدقيقة الحريصة قد زار هذه الواحة ولم يرَ الظاهرة العجيبة التي أشرنا لها هنا. وسكوته في نظري هو دليل مقنع بأنها غير موجودة. (المؤلف).

ألامسها وأن أدفعها ولكنها لم تهتز. وبتقدير ارتفاع الناقة والراكب والعصا فإن الصخرة تكون على ارتفاع خمسة عشر قدماً فوق سطح الأرض». أقرّ رفاقي بجهلهم التام بوجود هذه المعالم الحجرية، ولكنّ اعترافهم هذا لا يخدم القضية أكثر مما خدمها سكوت ليتشمان عنها.

كلاهما يشير الشكوك التي لا يمكن بما نعرفه الآن عن المنطقة التأكّد من صحتها ولكن لا بد من الإقرار بأن التصريح بوجودها لا يمكن أن يُعزى بأي حال من الأحوال لخيانة ذاكرة خربة، وأنّه إن تأكد أنّها غير موجودة، فإن الاحتمالات هي أن بلجريف لم يرَ عيوناً قط. ولكن من الجانب الآخر إذا تأكد وجودها يكون هناك كلّ الأسباب التي تدعونا لأن نصدّق أنّه قد زار بالفعل الموقع واحتمال أن يكون قد زار بريدة أيضاً. وإذا اعترفنا بهذا واتفقنا عليه رغماً عن وصفه الخيالي الجامح للمشهد الذي يبدو أمامه فلا بدّ لنا أن نهمل الدليل الداخلي الذي استقيناه من المغالاة في وصفه للأراضي السعودية كاختبار لصدقه العام. لذلك هناك الكثير مما يتعلق حول التساؤل عن وجود حجارة العيون الضخمة أو عدم وجودها. وهذا السؤال لا بدّ أن يبقى مُعلّقاً في الوقت الراهن.

تمّت استضافته في العيون لتناول طعام العشاء. ثمّ يُقدّم لقرائه محاضرة على نحو مشتت عن نباتات الجزيرة العربية، وعن المصاعب التي قد تنجم عن التخفيّ بطريقة غير ملائمة في أرض المسلمين. معرفته بالنباتات غير مصقولة، ولكن ليس من المهم تعقّبه تفصيلاً في هذا الجانب. يكفي أن نقول إنّ تقديره لأبعد أعماق الآبار في القصيم بستة أقدام لا تسنده الحقيقة، ولا ادّعاءه أن تمرّ هذا الإقليم تُصدّر إلى اليمن والحجاز. والمرحلة التالية في هذه الرحلة هي واحة الغاط الوهمية

== الجزء الثاني ==

التي استغرقت - رغم ذلك - بساتينها وحقولها ساعةً لاجتيازها. وأخيراً بعد أن رأى بريدة على بعد فرسخ من هناك، يتوقف ليقضي المساء في الدويرة، وهي من ابتداع خياله أيضاً.

وفي النهاية بلغ بريدة في ١٧ سبتمبر (أيلول) ١٨٦٢م وقضى بها أسبوعين، ولكن تعليقاته حول الأشياء عموماً كانت استطرادية حيث ركّز على خيام وهوداج قافلة هندية - فارسية التي تصادف وصولها إلى المدينة ونصبت خيامها قبل بضعة أيام. ثم قام باستعراض ثري للمعرفة العظيمة التي يملكها عن تفاصيل حياة العرب الحضرية بالمدن. ألم يَعِشْ فترة طويلة بدمشق^(١)؟ إنه يعرّض نفسه لقليل من الانتقاد في وصفه لإقامته هناك، وحينها يكون الانتقاد لبعض التفاصيل فقط. وكتب عن المآذن والمعالم الأخرى التي تميّز بين السلفيين وغيرهم. يمكنه بسهولة الحديث عن معلومات بلغته عن طريق وسيط دون خطورة، لكنه يعرّض نفسه للخطر عندما يقول: «أحياناً يكون هناك خطأ طویل من هذه الحيوانات (الإبل)، يُربط حبل الرأس لكل بعير بمذيلة (سير جلدي تحت الذيل) الحيوان الذي يسبقه، وهو أمرٌ غير مريح في الانحناءات الحادة».

إنَّ عادة ربط حيوانات القافلة بهذه الطريقة منتشرة في الهند ولكنها بالقطع لا توجد في صحاري الجزيرة العربية، وكانت المناسبة الوحيدة التي رأيت فيها هذا المشهد إبان إقامتي في الجزيرة العربية، كان في طريق الطائف - مكة بالحجاز. هنا يجد بلجريف الصخور المألحة «ذات نقاء وبياض عظيمين»، بينما أنَّ إنتاج أحواض الملح بالقصيم لها دائماً لون وردي متسخ. ويرتقي التلال الرملية التي يكسوها

(١) لا بد أنه تعرّف هناك على عدد لا يحصى من أهل بريدة وعنيزة. (المؤلف).

الأثل في أطراف المدينة ويرى عندما ينظر ناحية الجنوب الغربي «كل المنطقة تتناثر فيها جُزرٌ من الزرع بين الرمال، ورأى على البعد ظلالاً أكثر كثافة تشير إلى موقع عزيزة نفسها». في حقيقة الأمر يرى الإنسان قفاراً لا حدود لها من التلال الرملية العالية التي تتقلص حجماً كلما بعدنا عن المدينة. لكنها تمنع تماماً كل إمكانية لرؤية عزيزة. ولا بدّ أن الجيش السعودي قد تدهور الآن مقارنةً بالوقت الذي يصفه فيه بلجريف، حين كان على مستوى عالٍ من الفعالية إذ لا حظ أن بنادقهم قد ربت في شكل هرمي قريب الشبه بطريقتنا في حفظ الأسلحة».

وتتكاثر هفوات شبيهة بهذه بحيث لا تُحصى، لكنه يصبح أكثر عرضةً لها عندما ينتهز فرصة إقامته الممتدة ليقوم برحلات^(١) يومية للمنطقة المحيطة بالمدينة. «من أجل دراسة الحياة الريفية بالقصيم». هذه الرحلات لها النكهة المميزة لزيارته للأفلاج. كان هدفه في الحالتين اللتين ذكرهما قريتي أصخا والمذنب. أمّا الأولى إمّا أنّها غير موجودة، أو أنه يعني بها مصقع، وهي على بعد مسيرة أيام من بداية رحلته، بينما المذنب -إضافةً لأنّها كانت تبعد كثيراً بحيث لا يمكن أن تكون هدفاً لرحلة عادية ليوم واحد- فإنّها تقع في الخط المباشر للطريق الذي يصل بين بريدة وشقراء، والذي أخبرنا بلجريف أنّه لم يسلكه عندما عاود مسيره نحو الجنوب. ثم يقول «يجري طريقان الأقصر أمامنا»^(٢)، وهو مطروق أكثر ويقود نحو الجنوب الشرقي والشرق عبر إقليم الوشم وعاصمته شقراء، ثم عبر وادي حنيفة^(٣)

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول ص ٣١٤. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول ص ٣٢٤. (المؤلف).

(٣) من المهم أن نلاحظ أن بلجريف يتحدث بانتظام عن وادي حنيفة وكأنه يجري من الجنوب للشمال، في حين أنه - بالطبع - يجري في الاتجاه المعاكس. وهذا خطأ لا يُغتفر لمن كان شاهد عيان للوادي بين العينة والرياض. (المؤلف).

للرياض. ولكن هذا الطريق كان يمرُّ عبر إقليم يزوره كثيراً في الوقت الراهن جنود عنيزة وحلفاؤهم، ولذلك لم يتحمَّس رفاقي - ولم يكونوا فائقي الشجاعة- فأبوا أن يسلكوه: في هذه النقطة يقترب الرجل كثيراً من إطلاق كذبة مباشرة إذ أنه قبل أيام قلائل قد عبر مرتين بداية ذلك الطريق، وهو بلا شك أكثر خطورة، ولم يكن هناك سببٌ للتخوُّف منه في هذه المناسبة. ولكن الواضح أنه لا يدري أن المذنب تقع على ذات الطريق. وإن كان الرجل قادراً على اختلاق رحلة لذلك الموقع فليس هناك سبب واضح يمنعه من أن يكون قد اختلق مغامرات أخرى بما في ذلك رحلته للأفلاج.

لا أود أن أطيل في التعليق عن رحلته بين بريدة والزلفي. لقد اعترف السيد هوجارث أنه لم يعرف لوصفه أولاً ولا آخرأ. ورغم هذا فإن بلجريف في وصفه لهذه الرحلة كتب بتفصيل يفوق كثيراً وصفه لرحلة الأفلاج. إنه يعطي وصفاً تقريبياً لمساراته وتوقفه بينما أن الأمر استغرقه حوالي ثلاثين ساعة سير ليقطع مسافة ستين ميلاً، وهي سرعة تتوارى خجلاً أمام إنجازه في رحلته للخرفة: ١٧٠ ميلاً في يومين من البداية للنهاية مع التوقف للمبيت. وكانت وقفاته أيضاً في واحات وهمية: الرويضة وواسط، وليس مستغرباً أن وصفه أربك السيد هوجارث واستعصى عليه أن يطابقه مع المعلومات التي حصل عليها من مصادر أخرى.

رغم هذا فإن بلجريف من الحمق بحيث يحذرُ القارئ من المآزق التي قد يقع فيها الإنسان حيث لم يكن حذراً عند محاولات استقاء معلومات جغرافية من العرب. استمع لقوله: «دعني أبدي رأياً هنا^(١)»، إنَّ الأوربيين الذين يزورون أو

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول، ص ٣٣٧. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

يصفون الشرق ينبغي عليهم اتخاذ الحيطة والحذر من أخذ المعنى الحرفي للجمل والعبارات الضبابية التي يستخدمها معظم العرب، ولكن على وجه الخصوص المصريون والسوريون عند حديثهم مع الغرباء ويسبب استخدام المترادفات والألفاظ المتجانسة أيضاً كثيراً من الأخطاء للباحثين الأجانب. ولا يستقيم الأمر إلا باستجواب عدد من الأفراد في أوقات متباعدة وأماكن مختلفة، ثم مقارنة هذه المعلومات بتمهّل مع بعضها البعض، واستخلاص ما يشبه الحقيقة منها. وإن كان الأمر حول مواضيع هامة فمن الخير أن يستخدم الشخص نظره وأذنيه في موقع الحدث وإبداء الاعتراضات والتساؤلات في حينها إن أمكن. ولن تجد نجدياً - كبيراً أو صغيراً - حريصاً على أن يعطي أوروبياً معلومات دقيقة عن موطنه».

لا أستطيع أن أنتقد وصف بلجريف - بثقة شاهد العيان - للمنطقة بين الزلفي وسدوس على جانب مجرى وادي حنيفة، فأنا لم أر المكان. ولكن هناك بعض النقاط التي تدعو الإنسان للتأمل. فتقديره لارتفاع هضبة طويق بألف إلى ألفي قدم «فوق سطح شبه الجزيرة المحيطة بها» هو تقدير خاطئ، ولكنه أقل مبالغة من قوله أن تجمع أمطار طويق «يقع على الجانب الشرقي وليس الجانب الغربي». هذا مفهوم من نسج خياله ولكنه يطرّره بإضفاء تفاصيل عليه. «إنّ الحافة الخارجية لطويق حادة طوال الوقت، وتتخذ شكل شفرة يبلغ ارتفاعها خمس مئة أو ست مئة قدم من الصخور الجيرية، ترتفع من السهل الملامس للهضبة، ويتلو ذلك نجدٌ تختلف مساحاته ولكنه مُسطح. ثم تأتي درجة أخرى ارتفاعها ثلاث مئة أو أربع مئة قدم، يتلوها نجدٌ ثانٍ أكثر ارتفاعاً، ومن وقت لآخر، هضبة ثالثة تعلو فوق الثانية». ويتوج صورته الكاريكاتورية لمعالم هضبة طويق بأن يسخر من «الجغرافيين

الذين يتكرمون بتزويد الجزيرة العربية، خاصة في جانبها الشرقي بأنهار تجري من الدرعية أو من مكان آخر... للبحر... إننا سنتبع وادي عفتان الذي يظهر دائماً في الخرائط كنهر» سنتبعه بعد قليل على امتداده وسنعرف عندها حقيقته^(١). ولكن لا ينبغي علينا أن نكثر لسخرية نابعة ممن يجعل وادي حنيفة يجري في الاتجاه المعاكس، ويقوم بالإنجاز المدهش بمتابعة وادي عفتان الوهمي على امتداد طوله. إنه لغني عن القول أن وادي عفتان هذا لا وجود له على أرض الواقع.

لقد وجد الآبار في الغاط وافرة المياه، حتى في ذلك الوقت، أكثر أوقات العام جفافاً، وكان الفائض منها كافياً للماء مستودع كبير تجري من كل جوانبه الجداول...» وعند ارتقائه الممر وجد نفسه في ظلال أشجار حرجية وقد أدهشه أن يرى بينها شجر الدُّب (الصِنَار)، وأضاف أيضاً أن «الأفاعي في نجد لا تقل ندرية عن إيرلندا أو مالطا». وبهذه المناسبة سخر من رواية عاطفية^(٢) كتبها م. لامارتين الذي اكتشف بطل روايته أيكمة ممتلئة بالجلود التي انسلخت منها الأفاعي... نوع من مستودعات الإيداع لجلود الأفاعي... كما أعتقد». كم هم سعداء الجوال الذين يملكون خيالات غنية وخلّاقة!

وفي نهاية الأمر يبلغ سدوس التي تبعد ميلاً واحداً تقريباً من حافة وادي حنيفة الذي يجري هنا دون مقاطعة في اتجاه جنوبي شرقي بطريق العيينة والجبيلة والملقى إلى الدرعية: ومن ثم للرياض نفسها. ولكن الوصول إلى حافة الوادي -الذي وجده يجري أمامه في اتجاه الجنوب الغربي- استغرق منه الجزء الأكبر من

(١) كتاب بلجريف، W.G.P. الجزء الأول ص ٣٣٩. (المؤلف).

(٢) رحلة فتح الله الصايغ الحلبي.

مسيرة يوم طويل . وكان وصفه للرحلة يجعلنا تائهين بين الرأس والذنب بحثاً عن الحقيقة التي لم تكن مضمّنة في وصفه . إنّ ذكره للعينة والملقى والدرعية قد يخفّف من غلواء انتقادنا له رغم أنه أخطأ حين ذكر أن العينة والدرعية تقعان في فرعين مختلفين للوادي . لكنه يعود فيستوجب النقد ثانية عندما يطلق اسم الجيلة ، وهو موقع لانتصار إسلامي قديم على الروضة .

كانت قمة مغامراته في الرياض التي بلغها يوم ١٣ أكتوبر (تشرين الأول) ، وغادرها يوم ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٢م ، بعد أن أقام بها اثنين وأربعين يوماً لقد رأى أهمية أن يصطحب معه قراءه لأسرار الحياة الخاصة ، فيقول : « قبل أن أشرع في وصف تفاصيل الأيام الخمسين التي تلت في هذه المدينة الغريبة لا بدّ أن أعتمد كثيراً على مخزون الثقة والتصديق التي أثق في أنّ قرائي يدلونني إياها تفضلاً بوصفي رجلاً إنجليزياً رغم أنني جوال . إنّ هدفي هو أن أعطي فكرة كاملة وفي الوقت نفسه صادقة عن الأرض والحكم . . إلخ» . في حقيقة الأمر إنّ موضوعه : قصة المغامرات الغريبة والممتعة والخطرة في البلاط السعودي لا يتعرض وصفه لها لانتقاد وتشريح دقيق مثل ما تعرّضت له المراحل السابقة من رحلته التي أوصلته إلى العاصمة . إنّّه ماهر كما أسلفت في معالجة قضايا حياة العرب المدنيّة . والحياة في الرياض -رغم أنّها أكثر التزاماً- لكنها لا تختلف كثيراً عن الحياة في بريدة أو حائل . أمّا بالنسبة لتجاربه فهي يمكن أن تحدث لو أنّه أقام فعلاً في الرياض ، بيد أنها لم تكن لتخلّذه إن كان قد كتبها من الخيال دون أن يزور الرياض . إنّّه يزلّ ويخطئ كثيراً -كما نتوقع- في أمور التفاصيل ، ولكن الأمر سيكون مملاً إن تتبعنا وصفه لتجاربه في الرياض بالتفاصيل الدقيقة التي اتبعت فيما

عدها. ويمكننا أن نتساءل عن الإنصاف في تعريضه^(١) بالمبادئ الأخلاقية السلفية، كما يمكننا أن نصرف إفادته التي تقول بوجود الخنزير والخنزير البري بكثرة في جبل طويق بأنها هراء، ونرتاب أيضاً في إفادته بأنه قد سمع في الرياض للمرة الأولى أو قد وجد آثاراً للحميريين، وقد نشكك أيضاً في أنه كانت له الحرية - وهو مسيحي - في الدخول للمساجد السلفية كما يريدنا أن نصدق.

وردت أطروحة مطوّلة متخصصة عن الأمراض الموجودة في الجزيرة العربية، وذلك في خضمّ وصفه للحياة بالرياض، لتذكرنا أن بلجريف كان في المقام الأول طبيباً، وأنّه في خضمّ مشاغله الأخرى، أو بالرغم من هذه المشاغل قد أفسح وقتاً كافياً لممارسة مهنته حتى يتمكن من الحصول على معرفة شاملة لا بدّ للجزيرة العربية أن تعلّمها للطبيب. وليست لديّ المعرفة المتخصصة التي تمكنني من انتقاد قائمته الطويلة التي تضمّنت حوالي خمسين مرضاً أساسياً مرّت عليه أثناء ممارسته للطب بحائل والرياض لفترة شهرين ونصف. لعلّه من العدل أن نفترض أنه عندما قام بتدوين كتاباته من الذاكرة ما كان قد نسيّ تماماً الحالات المرضية البدوية التي لا بدّ أنه قد عالجها في دمشق. ولكن يبدو أن ذاكرته عن الحالات التي قابلته في وسط الجزيرة العربيّة نفسها قد خذلتها، على الأقل في حالة واحدة، فهو يقول «هناك مرض لا حاجة بي لذكر اسمه»، ويحمرُّ وجهه خجلاً وهو يكتب هذه الكلمات، «وهو منتشر بصورة مخيفة، ومثل بقية الأمم فإنّ العرب ينسبونه لمصدرٍ خارجي» يمكنني أن أغامر فأؤكد أنّ الأمراض التناسلية نادرة للحدّ البعيد في

(١) مثلاً في الجزء الثاني من كتابه، يقول ص ٢٤: «التهتك والخلاعة بجميع أنواعها حتى اللغة التي لا يمكن أن نسمّيها، هي أكثر شيوعاً هنا عن دمشق وصيدا». هذه الإفادة محض قذف وتشهير ولا شك. إنّ من قرؤوا لبيرتون قد يقبلون إفادتي إن اللواط والزنا والفسوق لا تُعرف تقريباً في وسط الجزيرة العربية. (المؤلف).

الأرض السعودية، وتكون الحالات التي تظهر عامةً راجعة لا لتهابات حدثت لزوار بلاد مثل البصرة أو دمشق أو القاهرة، أو مكة أو المدينة.

لا ينبغي أن نتوقف إزاء محاضرتة عن الخيول العربية، أو أمام المواقف المثيرة مع عبدالله الوريث المحتمل للعرش السعودي، والتي بلغت ذروتها في «هروب بشقّ الأنفس عن المدينة، واختباء لثلاثة أيام في الجوار، حتى تعدّ العدة للزحف الأخير على الأحساء وشواطئ الخليج العربي». ولعله أعطانا من خلال وصفه لهذا الأمر الدليل القاطع على أنه ليس أهلاً للثقة.

كان ذلك اليوم هو ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٢م. وكان الشتاء قد حطّ عصا ترحاله الآن، وهطلت أمطار غزيرة، لكن «لم يُبدِ أيّ من الأودية ميلاً لبلوغ البحر، وما كان ينبغي لها. إذ أنّ هذا الجزء من نجد تطوّقه سلسلة جبال طويق». هذا بلاشك افتتاح مُيسّر لرحلة تنحدر عبر وادي حنيفة الذي يتجه نحو الجنوب الشرقي، وهو سيبلغ البحر إن سالت به كمّيات كافية من الماء. وتحفّ بالوادي كل كتلة طويق من جهة الغرب -حسب روايته- وليس من جهة الشرق كما هو الحال. وفي هذا الجزء من الرحلة فإن بلجريف يربط نفسه بعقد تستعصي على الحل. لقد استغرقه الأمر كما يقول أربع ساعات ليبلغ منفوحة التي تقع في حوض الرياض نفسه، ويمكن الوصول إليها في نصف ساعة مع السير المتجهّل. وبعد منفوحة لا يجد نفسه في وادي حنيفة كما ينبغي أن يفعل، ولكن في وادي السلي. ولا يذهب وادي حنيفة إلى الشرق أكثر من هذا، «وتكوّن سلسلة الجبال المنخفضة المتعارضة التي قطعناها لتوّنا خطأً جغرافياً وحدودياً». وهذا يعني أنّ هذه «السلسلة العرضية» هي مصدر وادي حنيفة، وهذا يجعله -كما نوّهت من قبل-

يجري في الاتجاه المعاكس تماماً للاتجاه الذي يسير فيه . هذه السلسلة العرضية ليس لها وجود بطبيعة الحال ، ووادي حنيفة ينبع من الطرف الغربي لهضبة طويق ، ويجري منحدرًا من خلال الهضبة ، وبطول حافتها الشرقية لإقليم الخرج ، ثم لمجرى تصريف السهباء .

أما وادي السلي الذي لم يجد فيه «سوى قرية صغيرة ليست ذات شأن» فهو في حقيقة الأمر ليست به قرى على الإطلاق . وهو يجعل هذا الوادي أيضاً يجري في الاتجاه المعاكس بعد أن يهبط من مصدرٍ وهمي في إقليم الحريق الوهمي أيضاً ، ليجري في اتجاه الشمال . وينبع الوادي في حقيقة الأمر من شمال الرياض ليقترن بوادي حنيفة قبل بلوغ إقليم الخرج بقليل .

يقع بلجريف في هذه الأخطاء رغم أنه أفاد من الأيام التي قضاها بلا عمل ، بأن ارتقى «مرتفعات طويق الصخرية الجيرية العالية في جانب الهضبة الشرقي» . والسبب وفقاً لإفادته «الحصول على فكرة أوضح عن البلاد» . ومن ذلك التواء المرتفع حصل على لمحة بعيدة «للجبال الزرقاء المسننة للحريق في أقصى الجنوب» ، والتي رآها مرة ثانية في مرحلة لاحقة من رحلته بعد أن تخطى السلمية ، حينها رأى «مشهداً جنوبياً ممتازاً لها» ، «صرنا الآن قبالتها رغم أنه كان يفصلنا عنها شريط صحراوي . وكانت جبال الحريق سلسلة من الجرانيت -فيما يبدو- تجري من الشرق للغرب ، وهي سلسلة مسننة ومنعزلة ، طولها بالتقريب ستون ميلاً أو أكثر . وكان من المثير أيضاً أن نرى كيف أن جبل طويق يستهي فجأة -بل بحدّة متناهية- في الصحراء وهو يهبط في تعاقب سريع للدرجات الترسبية ، وكان آخرها يهوي كحدّ الشفرة نحو القفار الرملية» . كلُّ هذا بلا شك من وحي خيال جامع . وليست هناك كلمة واحدة تحمل أيّ علاقة بالحقائق .

وفي النهاية في يوم ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني)، انتهت فترة الاختباء، ويعوِّض بلجريف الزمن الطويل الذي أضاعه ليلغ منفوحة، عندما هرب لينجو بنفسه بسرعة كبيرة جداً، رغم أنه كان حينها في مأمن من مطارديه، وكانت ترافقه قافلة كبيرة الحجم نحو السلمية في الخرج، وبلغها في اليوم التالي، ولم ير الرجل أهمية لأن يوضح للقارئ كيف أن قافلة متجهة للأحساء اختارت هذا الطريق الطويل الملفت كبديل للطريق العام الذي يذهب للإقليم مباشرة. وكانت المرحلة الثانية له هي آبار القاعيات التي تبدو وهمية. وعندما واصلوا سيرهم في اليوم التالي ضلّت القافلة الطريق في خضمّ «غطاء ثقيل من السديم يناسب إقليم سوريي بإجلترا أكثر من ملاءمته للجزيرة العربية. لقد كان الضباب كثيفاً حقاً». وفي النهاية وقفوا «على آخر نتوءات طويق وأعلى ما بهذا الجانب منها. وطويق ذلك الحائط الجيري الذي يحدّ ويسند نجد من الجانب الشرقي». ثم هبطوا للمستوى الأدنى للصحراء الشرقية حيث وجدوا مزيداً من الآبار، وهي فيما يبدو وهمية أيضاً، سمّاها أويست.

وواصلوا سيرهم ليلاً حيث تغيّرت طبيعة الصحراء لتسود الرمال تدريجياً» لقد كانت الدهناء العظيمة^(١) أو الصحراء الحمراء التي تخيف حتى الجوّالة البدو، والتي لا يعبرها المسافرون العاديون بلا قلق وترقب تسوّغه الحوادث القاتلة في كثير من الأحيان». «كم هي خفيضة رمالها، وكم هي نزويّة النسمات التي تشكلها وتعيدُ تشكيلها كل يوم تلالٌ مضطربة وأودية، بحيث لا تبقى آثار مسافر سابق ليهتدي بها مسافرٌ لا حق، بينما الحرارة الحارقة والضوء الساطع تنعكس على كلّ

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الثاني ص ١٣١، ١٣٢. (المؤلف).

أنحائها وتتطابق مع العطش والجفاف والنصب، وكلها تُربكُ وتحير المغامر حتى يفقد شعوره بالاتجاه فيتخبط على غير هدى ارتقاءً وهبوطاً في خضمّ قفار معزولة تصبح بعد قليل قبراً له. لقد لاقى الكثيرون حتفهم بهذه الطريقة، حتى أن قوافل بكاملها ضاعت في الدهناء دون أن يُعثر لها على أثر. هل يمكن أن يكون هذا وصف رجل عبر ذلك الحاجز الرملي بنفسه؟ وعبره ليلاً مهتدياً بالنجوم؟ إن هذه الأحزمة الرملية العريضة تصبح لفترة تمتدّ شهوراً كل عام دياراً للبدو ينصبون خيامهم ويعيشون فيها هم وقطعانهم وإبلهم. هذه الرمال تضمّ كل أسرار الحياة الرعوية^(١)، إذ لا يوجد مكان تتفوّق أعشابه على أعشاب تلك الطيّات الرملية، ومن دونها تصبح الحياة الرعوية للعرب شيئاً مستحيلاً. ولا يسبب عبور الدهناء فزعاً لأيّ رجل. رغم هذا وجد بلجريف وحداة ركه وسيلةً ليضلوا الطريق، وهو يعزو حسن الطالع الذي عاد بهم لجادة الطريق ثانية للتمرين الذي قام به ملاكه الحارس وحادي ركه (أبو عيسى)، واستخدامه للقوة الكامنة في الطبيعة البشرية والتي لا يمكن استدعاؤها إلا في ظروف خاصّة، ومن خلال تدريب طويل.

وبعد خروجهم من القفار الرملية توجهت القافلة عبر صحراء الصمان الخالية الممتدة، حيث يزُلّ بلجريف ويخطئ حيناً بعد حين دون أن تكون أخطاؤه كبيرة، حتى يبلغ الجانب الآخر من وادي الفروق. ثم بدأ يشق «في حذر سلسلة جبال الأحساء الساحلية، إذ يفصل - هنا أيضاً - الصحراء عن البحر خطّ من التلال المسننة العارية التي تمرّ تقريباً بطول كلّ المحيط الذي يلفّ الجزيرة العربية. وفي قبالة وادي الفروق ترتفع التلال - بناء على ملاحظاتي التقديرية - لألف وأربع

(١) أبرز داوتي وبلنت شهادات كافية تدعم هذه الحقيقة. (المؤلف).

مئة قدم فوق سطح البحر، ولأربع مئة قدم فوق سطح الجانب الغربي من الصحراء التي هي نفسها على ارتفاع ألف قدم فوق سطح الساحل». التعليق الأخير يقارب الصواب، ولكن الباقي هراء تماماً كإفادته أن المكونات الأساسية «لجبال الأحساء من الجرانيت والحجارة الرملية مع قليل من المرو» (الكوارتز) والبازلت». في حقيقة الأمر تمتد من الجانب الغربي للدهناء وحتى ساحل البحر الشرقي صحراء شاسعة من الحجارة الجيرية تنحدر هابطة بالطف تدريج دون أن يكون بها سوى هضاب صغيرة وتلال على مسافات متباعدة لتغير رتبة طبيعتها العارية. ولكننا الآن على مشارف الأحساء، ولا بد أن أقتبس مقاطع من كتاب السيد هوجارث لأهمّد الطريق لا نتقادي لوصف بلجريف للإقليم الذي قضى فيه أسعد أسبوعين في كل الفترة التي أقامها بالجزيرة العربية.

يقول السيد هوجارث: «كان اليسوعي^(١) المتنكر مبتهجاً بنجاته من نجد المتزمنة، ووجد في الأحساء تعاطفاً أكثر، كما وجد بها وقت فراغ أكبر مقارنة بسابقه^(٢)، فقام بدراساتها. ويصبح سرده هنا مليئاً وحيّاً ويتضح فيه أنه لا يسعى لإخفاء نزعة شبه شرقية لرجل يرى القاعدة الأساسية المؤثرة في الحياة هي مذهب اللذة أو السعادة». وعلى صعيد أكثر جديةً يعطي بلجريف وصفاً تفصيلياً ممتعاً للمدن والواحة التي تضمها. ويتفق مع وصفه للمكان، الوصف القليل الذي أعطاه سلفه سادلير من قبله، وخلفاؤه بلي وزويمر. وبعد ثلاثين عاماً وجد زويمر الخارطة السورية للهفوف دقيقة جداً. يتحدث بلجريف عن تفاصيل الحياة بنغمة حميمة قل أن يتصف بها أوروبي في الشرق. ولا بد لنا أن نعتمد على كتاب

(١) كتاب هوجارث D.G.H ص ٢٣٥. (المؤلف).

(٢) كابتن ج فوستر سادلير الذي عبر الجزيرة العربية في عام ١٨١٨ م. (المؤلف).

بلجريف في كثير من وصفه لجنوب نجد، كونه حجة لنا لأنه ليس هناك غيره، وفي الأحساء نعتمد عليه أكثر من اعتمادنا على الآخرين جميعهم. ولولا بلجريف لما علمنا سوى التزر اليسير عن طبيعة الأرض وعن أهلها ولما فهم الناس من سبقوه أو لحقوه إلا يسيراً.

هذا تقرّظ عظيم بالفعل، وعندما يصدر مثله من السيد هوجارث لا بدّ أن نتمهّل قليلاً قبل أن ندخل في جدل مع بلجريف في معركة اختار هو أرضها. ولكن كم يستحق بلجريف هذا الثناء إن نظرنا لوصفه للرحلات مجرداً عن غطاء الحشو اللغوي الكثيف؟ يورد السيد هوجارث دعماً لهذا الثناء «القليل الذي أورده» ثلاثة أوريين آخرون زاروا الإقليم. وصف سادير الأحساء بأنها «تحتوي على بحيرات ونباتات ولكن ليس بها أنهار»، وعن الهفوف تحدّث عن «أطوال أسوارها الطينية وعن أعداد مقاتليها». ولا بدّ أن نعترف أنها مادة ضئيلة إذا ما قورنت بوصف بلجريف الكامل ذي التفاصيل. ولم يُصف أي من بلي أو زويمر شيئاً ذا بال لوصفه ولكن ملاحظات بلجريف حول خارطة^(١) الهفوف أظهرت أنه مراقب غير مبال، وتستدعي ملاحظاته أن نسوق في تفسيرها شيئاً من إيضاح. الخارطة السورية تُظهر الهفوف كمدينة ذات شكل مستطيل تقريباً، بينما تحتل الكوت أو القلعة مساحة في أعلى الركن الأيسر في داخل إطار المدينة.

وينشأ سؤال حول اتجاهات الخارطة وهو أمر يعتمد عليه مبدأ دراستها دراسة جيدة. ولكن بلجريف في هذا الشأن يحدد موقفه بصورة قاطعة. وعندما اقترب من الهفوف ماراً عبر «بيوت الغوار البائسة»، ذكر أن العاصمة تبعد عنها

(١) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الثاني ص ١٤١. (المؤلف).

خمسة عشر ميلاً كاملة في اتجاه الشمال الشرقي . وكان الطريق الذي سلكه يتقدّم نحو المدينة من الجنوب ، وهو يعلن دون لبس أنّه دخلها عبر البوابة الجنوبية ، إذن فإنّ اتجاه الخارطة يمتد بين الشمال والجنوب كما يمكن للمرء أن يتوقع ، ويحتل الكوت الركن الشمالي الغربي من المدينة . ورغم هذا فإنّه يقول في متن كتابه إنّ الكوت تقع في الركن الشمالي الشرقي منها . كان هذا التناقض الغريب قد لفت انتباه زويمر الذي لم يرَ ضرورة - فيما يبدو - للتفكير في اتجاهات امتداد المدينة . ولقد ندمت أنني لم أتجشّم عناء رسم الأجزاء المختلفة للمدينة وموقعها من بعضها البعض . ولكن يبدو لي - وهذا حديث من الذاكرة - أنّ الكوت يحتل الركن الشمالي الغربي للمكان . وعلى أيّ حال؟ لقد تقدمت نحو الهفوف من اتجاه شرق - ١٠ شمال^(١) ، ودخلتها عبر بوابة تقع بالتقريب بين الرقمين ١١ و ١٢ في أعلى الركن الأيمن لخارطة بلجريف . أمّا خرائطه التي أعدها لمدن الجزيرة العربية - وعلمنا أن نتذكّر أنّها أعدت من الذاكرة - ينقصها الشيء الكثير ولكنني ناقشت مخططه لمدينة الرياض نقاشاً كافياً من قبل^(٢) ، والذي يحمل شهاً لصيقاً لمخطط حائل رغم أن الأخير يوضح فجوة أقل حجماً عن تلك التي تميّز الرياض ، كما أنّها إلى الجانب الغربي وليس في الشرقي .

إنّ ترتيب المتبعثر من المستندات والنصوص التي تدعم قبول وصف بلجريف للأحساء يُظهر أنّ هذا الوصف ليس كثيراً . وأبحث أنا في ذلك الوصف لأجد

(١) التقطت الصورة الفوتوغرافية الموجودة في ص ٣٥٣ من الجزء الأول لهذا الكتاب في اتجاه ١٠ درجات جنوب الاتجاه الغربي . وتُرى في الصورة مثذنة جامع إبراهيم باشا في منطقة الكوت ، التي تبدو هكذا أنّها تحتل الجزء الأبعد أو الجزء الغربي من المدينة نحو الشمال . (المؤلف) .

(٢) الجزء الأول ، ص ١٣٥ . (المؤلف) .

== الجزء الثاني ==

مسوَّغاً لتقريظ السيد هوجارث، لكن دون جدوى. ماذا قال لنا إذن؟ لقد تركناه يسير بحذر في سلاسل الجبال لساحل الأحساء. ويقول «عندما خيم الظلام، بلغنا أعلى القمم... حيث رأينا سهول الأحساء، ولكننا لم نستطع تمييز أي شيء نسبة لانتشار الشعاع الخادع للقمر البازغ... وضربنا في الأرض، تارةً نرتقي وطوراً نهبط الممرات والجروف شديدة التحدر حتى بلغنا منحدرًا لولياً بجانب الجبل الترسبي المواجه للبحر. وهبطنا به مسافة ألف قدم أو نحو ذلك، وبلغنا بعدها مستوى الأحساء المنخفض»^(١).

استنكفوا عن الاستجابة للإغراء بالتوقف في «بيوت قريبة من الغوار، في سطح الممر وكذلك في قرية شعبة على بعد حوالي خمسة أميال عن يميننا». وواصلوا المسير للهفوف. ثم يعطينا عن المدينة كثيراً من التفاصيل الممتازة، ولكن ليس من دون أخطاء فادحة، وكثير من الإسقاط. ولكنه أبدع في وصف المنطقة المحيطة التي زارها راكباً «حماراً مزوداً بسرّج جانبي، إذ أن السروج الجانبية هي السائدة في الأحساء لكل راكبي الحمير، رجالاً كانوا أم نساء».

«عندما استدرنا ناحية الغرب»^(٢)، هكذي يروي لنا «وجدنا أمامنا عدداً كبيراً من المجاري المائية... ونباتات شبيهة بالنباتات الهندية، وتبدو غريبة في هذا الجزء من الجزيرة العربية... تمتد سلسلة الجبال لمسافة مئة ميل على أقل تقدير في اتجاه الشمال. إذن دعونا نتجه جانباً إلى حقول معشبة لنرى ستة من الجاموس يبللون جلودهم القبيحة في بركة، ودعونا نشرب قليلاً من المصدر الذي يغذي البركة.

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الثاني ص ١٣٧. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الثاني ص ١٥٣. (المؤلف).

ولكن قف! إنّ المياه دافئة!! إنها تقريباً ساخنة، لا تندهش.. إن مصادر ينابيع وآبار الأحساء مثل هذه أو هي قريبة منها، وفي بعضها لا يستطيع المرء أن يغمس يده فيها... منتجات الأحساء كثيرة ومتنوعة، وتتغير هنا رتبة نباتات الجزيرة العربية التي يتعاقب فيها النخيل والأثل، فتظهر هنا نباتات أخرى. الببايا (دباء الهند) وهي معروفة أكثر في الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة^(١)، إنّها توجد هنا أيضاً ولكنها قصيرة النمو، وتوجد معها أشجار أخرى^(٢) معروفة في الساحل من كتش حتى بومباي. تزرع هنا أيضاً شجرة النيلة (نيلج) ولكن ليس بكميات تجارية.. ويزرع أيضاً في العادة قصب السكر ولكن ليس لاستخلاص السكر وفقاً لتصوري.. وتغطي السهل بالتقريب كل البقوليات والغلّال ما عدا الشعير (على الأقل لم أره مزروعاً ولم أسمع أنهم يزرعون). انتبه لهذه الملاحظة، لا يُزرع شعير في هذه الجنة الأرضية.

هذا هو وصف بلجريف الهيكلي للأحساء، ولكن أين هذا من الحقائق؟ لسوء طالع بلجريف فإنّ سلسلة الجبال الساحلية بالأحساء قد اختفت من الوجود، وذهب معها المنحدر اللولبي الطويل في الجانب الترسبي من الجبال الذي يقود إلى القرى والقرى الصغيرة التي تسكن في جانب الجبل. واختفت أيضاً معظم المنتجات المختلفة التي كان ينتجها الإقليم، ولكن لم يصب أرضها العقم إذ أنّ

(١) أي الهند. (المؤلف).

(٢) عن هذه الأشجار هو يعدنا بقائمة في الفصل اللاحق، أثناء وصفه لساحل باطنية (الجزء الثاني، ص ٣٢٧). وتحتوي القائمة على المانجو وجوز الهند والقوقل (الكوتل) والجاكية والبن واليام والجوز والتفاح... إلخ ولكنه لا يوضح ما وجده بالأحساء من هذه القائمة. في الحقيقة لا يوجد شيء هناك. (المؤلف).

== الجزء الثاني ==

الشعير ينمو بوفرة بعد أن توقف إنتاج البيايا (دبّاء الهند)، وقصب السكر، وشجرة النيلة. ومصادر الينابيع ليست حارقة الآن فهي دافئة أو معتدلة البرودة أو باردة. وأخيراً فإنّ ما يُورث الحزن أنّ الجاموس لم يعد يتمرّغ في وحل البرك إذ أنّه قد انقرض. لا يستطيع بلجريف أن يُعزو لِزَلَّةِ القلم ذكره لهذه الحيوانات إذ أنّه ذكر في مناسبتين سابقتين في سرده أنّها لا توجد في القصيم ووسط الجزيرة العربية^(١) وهذا صحيح.

ورغم أنّ كل هذا سيّئ إلاّ أنّه ليس كل شيء. إن كانت هناك نقطة واحدة دون غيرها يُتوقع لبلجريف أن يتحدث عنها بدقة ودون أخطاء، أو كان أمامه مجال واحد يُفترض أن يتطرق في وصفه لأدقّ التفاصيل فهو مجال الحركة السلفية الدينية التي كان يحمل ضدها تحيّزاً حذراً، وكان يعرف تماماً وبوضوح كل تجلّياتها. ورغم هذا فهو يقول في وصفه لمنطقة الكوت: «هنا»^(٢) أيضاً نموذج لمسجد تقليدي حيث يتم كل شيء وفقاً للنظام السعودي، وهنا يقيم المطوعون الذين يُرسل بهم من الرياض». هل يمكن أن يكون قد رأى بأمّ عينيه المئذنة المهيبة والقبة البديعة لجامع إبراهيم باشا الكبير^(٣)، أجمل معلم معماري في كل وسط وشرق الجزيرة العربية، وأكثر معالم المدينة مخالفةً للنظم السعودية، وهو الذي يركّز في العبارة نفسها على مخالفة طبيعة المدينة للتقاليد السعودية.

(١) كتاب بالجريرف W.G.P. الجزء الأول ٣١٥ ص ٤٥١. (المؤلف).

(٢) كتاب بالجريرف W.G.P. الجزء الثاني ص ١٥٠. (المؤلف).

(٣) نسبة الجامع إلى إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الوالي العثماني على مصر، بحاجة إلى مراجعة لأن المعروف تاريخياً أن نسبة الجامع إلى الوالي السعودي على الأحساء في الدولة السعودية الأولى واسمه إبراهيم بن عفيصان، الذي ينسب إليه قيامه ببعض التحسينات التي أُضيفت إليه، أما تاريخ بنائه فهو سنة ٩٧٤ هـ. (المراجعون).

بعد وقت قصير رحل بلجريف من الهفوف إلى خارج الجزيرة العربية متخذاً طريقاً لم أسلكه أنا، وهنا أتركه وشأنه. وأترك لمن يهمهم الأمر أن يحكموا له أو عليه بناءً على البيانات التي بين أيديهم. لقد بدأتُ محاولاً إثبات أن بلجريف لم يسافر من الرياض للخرفة، وجاءني الرد: قد يكون بنفس القدر من السهولة أن نقول أنه لم يرَ بريدة قط. لا بأس وليكن الأمر كذلك. إنَّ توسيع هذه الدائرة لم يكن من اختياري، ولكنني في معظم الوقت تركت بلجريف يروي قصته بكلماته. أليس هناك مسوِّغ كافٍ لإعادة النظر في الحكم الذي أصدره السيد هوجارث عن «البحث عن تبرير بديل لمبالغاته الكثيرة وإغفاله للكثير وبياناته الكاذبة». إنَّ الاعتبار التي بنى عليها هوجارث حكمه ذلك لم تعد صامدة، ورغم أننا «لا نطمع في أن نقرأ أسرار الكلية اليسوعية أو اللاهوت، لكن يحقّ لنا أن نتساءل ليس فقط إن كان بلجريف قد قام برحلة خاطفة للأفلاج، ولكن السؤال ما القدر الذي رآه من عمق الجزيرة العربية».

إن كان يمكن إثبات زيارة بالجرير لبريدة والرياض والأحساء بما لا يدع مجالاً للشك، فلا بأس من أن نضمَّ إليها الرحلة الصغيرة للأفلاج، ولكننا بالقطع نكون حينها في حلٍّ من تصديق حديثه، أي حديث «رجل إنجليزي، رغم أنه رحّالة»، عن مقدار إنجازاته، ويحقّ لنا أن نطالب بمعلومات إضافية أكثر إقناعاً نبني على ضوءها حكمنا، وليس على المعلومات الواردة في سرده الذي سوّد به جزئي كتابه. كان استقبال بلجريف في بلده بارداً^(١) بعد عودته من رحلته العظيمة،

(١) كتاب هوجارث D.G.H. ص ٣٠٦. (المؤلف).

وشكك رجال علم عمّا أورده عن الهيدروغرافيا (علم وصف المياه) في الجزيرة العربية، ولكن كانت المعلومات عن الجزيرة العربية آنئذٍ محدودة. لذا سجّل نصراً سهلاً - ولكنه بالطبع لا يستحقه - وفي مجادلة مع ج.ب. بادجر حول هذه النقطة. ومن الغريب أن بادجر لم يبذل جهداً في تلك الأيام للحصول على أدلة مستقلة (من مصادر أخرى) عن الأشياء التي حدثت بلجريف، على سبيل المثال بين الوقت الذي غادر فيه الجزيرة العربية والوقت الذي عاد فيه إلى دمشق. وليس من الممكن جمع أدلة عن هذا الأمر الآن بعد مضي كل هذا الوقت إلا من سجلات الكلية اليسوعية بسوريا، ولكن نشر ورقتي مع تعليقات السيد هوجارث عليها بمجلة الجمعية الجغرافية الملكية قد أظهرت شيئاً من مستور الماضي. ولقد أبدى ضابط بريطاني^(١) كان قد عمل في مسقط في السبعينات من القرن الماضي - وقدّم خدمات جليلة للجغرافيا العربية - شكوكه حول زيارة بلجريف لعمان.

وأقدم هذا الدليل بأن أورد النص الكامل لرأى السير ويليام هاوارد الذي طرحه في اجتماع^(٢) الجمعية الجغرافية الملكية أثناء المناقشة التي أعقبت قراءة ورقتي الثانية حول الجزيرة العربية. قال السير ويليام هاوارد: «لم أتمكن لسوء الطالع من الاستماع لمحاضرة السيد فيليبي الأخيرة، ولكنني قرأتها باهتمام بالغ، ورأيت فيها بعض الملاحظات حول احتمال عدم صدق بلجريف. وإنه لمن الضروري جداً أن يسوّى هذا الأمر في أيّ من الاتجاهين، ولعلّ الكلمات القليلة التي سأقولها الآن ستستجبه

(١) الكولونيل الراحل س.ب. مايلز. (المؤلف).

(٢) في ٣ مايو (آيار) ١٩٢٠م، راجع مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (J.R.G.S)، ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠م. ص ٤٦٦. (المؤلف).

بهذا الأمر قليلاً نحو الحسم. لقد كان قدري أن ألتقى ببلجريف عدّة مرات أثناء مسيرة حياتي. التقيت به عندما كان كاهناً يسوعياً في دَيْرٍ على نهر الراين. وذهبت إليه مع والدي، وأذكر - وأنا صبي حينها- أنني فكرت في أن مناقشته كانت خفيفة وغير جادة مقارنةً بما يتوقع المرء أن يسمعه من كاهن يسوعي، وهو مجتمع ارتبط في ذهني بالجدية والصرامة، ولقد تولّد في داخلي إحساس في وقت لاحق أنّ الفكرة التي كنت قد كونتها عنه في ذلك الزمان القديم كانت فيما يبدو صحيحة.

وذهبت إلى الخليج الفارسي قبل أربعين عاماً وكنت قبلها قد قرأت كتابه عن الجزيرة العربية (وهو بالمناسبة كان قد أخبرني والدي أنّه كان بالفعل يكتبه في الدَيْر عندما رأيناه بعد عودته من الجزيرة العربية)، ولا أدري إن كان ما انطبع في ذهني عن شخصيته أم لسبب آخر، إلا أنني عندما قرأته أحسست بأنّ لي شكوكاً حول دقّته. وعلى أي حال عندما وجدت نفسي في مسقط مرّة - في طريقي من بومباي إلى بلاد فارس - قضيت اليوم مع الرائد- كما كان حينها والكونويل لاحقاً- مايلز، وهو رجل معروف مبجلّ محترم، وهو المندوب السامي والقنصل العام. وسألته إن كان يعرف بلجريف، وأجاب: «بالطبع نعم، أنا أعرف بلجريف جيداً» وسألته: أرجوك أن تخبرني عن رأيك في صحّة كتابه فأجاب: «حسناً، أنا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن بقية الجزيرة العربية التي لم أزرها، وعن تلك المناطق ليس لي رأي.

ولكن.. يمكنني أن أدلي برأيٍ وأكثر من رأيٍ عمّا قاله عن مقاطعتي -تلك كانت مقاطعة أو مملكة مسقط-، ليس في حديثه كلمة واحدة صادقة، وسافرت أنا في جميع أنحاء هذه المقاطعة. ويتحدث بلجريف عن بساتين نخيل حيث

== الجزء الثاني ==

لا توجد، وعن مدن وقرى كلها من نسج الخيال، وختم حديثه قائلاً: «إنّه يتحدث عن طريق يرتقي تلك الصخرة» وأشار إلى جرف عظيم يواجه ميناء مسقط، هذا كل ما أستطيع قوله إنّها بينةٌ سماعيّة، ولكن أي إنسان تعرّف على الكولونيل مايلز يعرف تماماً أنّه رجل لا يستطيع أحدٌ أن يطعن في صدقه. وما قاله يمكن أن يؤخذ كدليل جيّد على أنّه كانت هناك أخطاء فادحة في وصف بلجريف للجزيرة العربية، الوصف الذي سمعت كثيراً من النقاش حول إمكانية التعويل عليه».